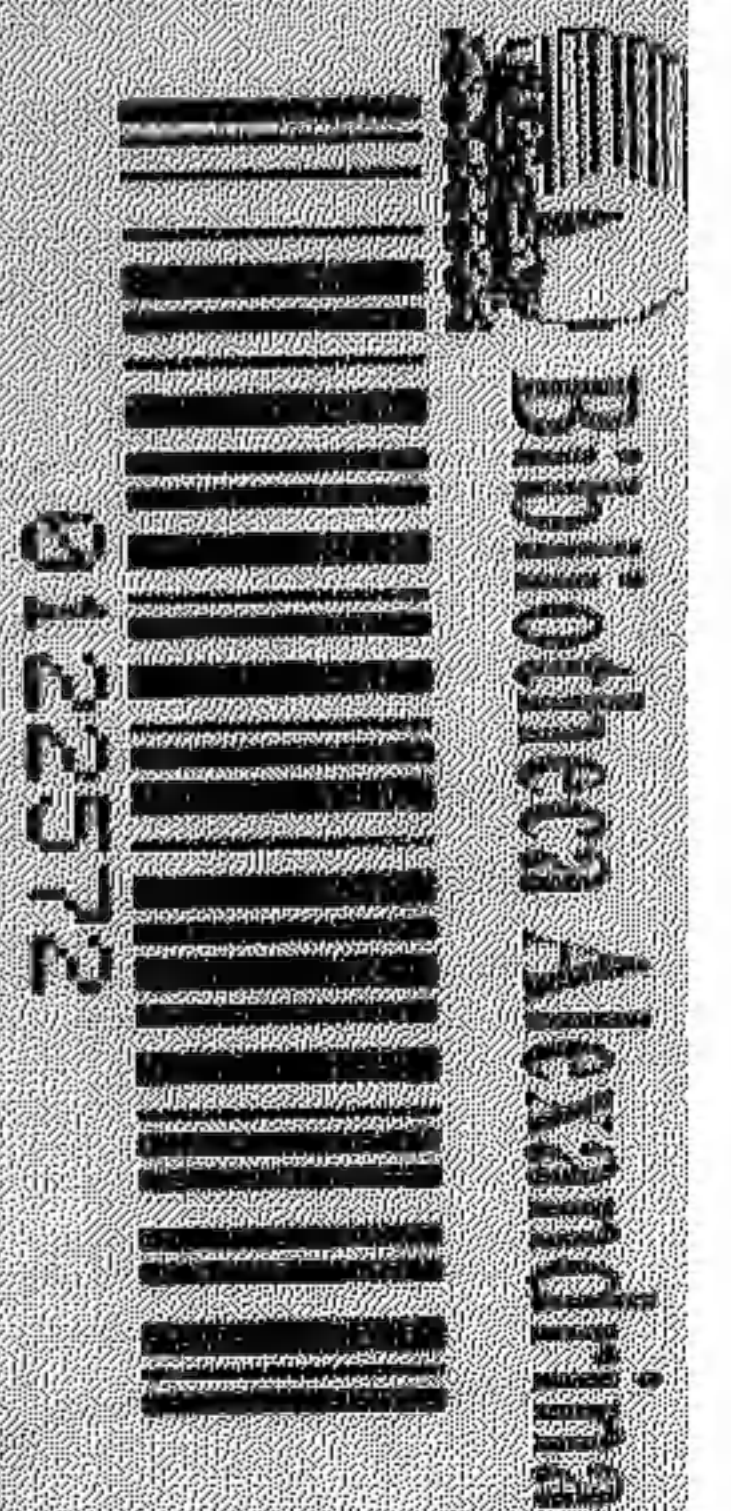


جان پول سارتر

نظرية الانفعال

دراسة في الانفعال الفينومينولوجي

ترجمة
هاشم الحسني



مكتبات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جان پول سارتر

نظرية الانفعال

دراسة في الانفعال الفينومينولوجي

ترجمة

هاشم الحسيني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

مقدمة

علم النفس ، الفينومينولوجيا^(١) وعلم النفس الفينومينولوجي

السيكولوجيا (أو علم النفس) مدرسة تريد نفسها
وضعية ، أي أنها تريد استخلاص مواردها من التجربة ليس
إلا ، ولسنا اليوم ، بلا ريب ، في عهد مدرسة تواصل الافكار
Associationinistes وعلماء النفس المعاصرون لا يتوانون أبداً
عن السؤال والتفسير . بل إنهم يريدون مجابهة غرضهم
بجابهة عالم الطبيعيات لغرضه . كما وأنه من الواجب تحديد
مفهوم التجربة في كلامنا على علم النفس المعاصر ، وذلك لأنه
قد يوجد بالمختصر مجموعة من التجارب المتباينة ، كما يتعين
علينا مثلاً أن نقررها إذا كانت هناك تجربة للجواهر
Essence أو القيم أو تجربة دينية . وليس في نية عالم
النفس أن يستعمل سوى نموذجين من التجارب ، دقيقين
التحديد : أولى هذه التجارب تلك التي يفرضي بها الينا الادراك

(١) الفينومينولوجيا يسميها بعضهم بالعربية الفلسفة الظاهرانية . «الترجم»

الزماني المكاني Spatio-temporel للأجسام المنتظمة ، ثم تلك المعرفة الحدسية لذواتنا ، والتي نسميها التجربة الانعكاسية Reflexive . وإذا كان ثمة مناقشات منهجية بين علماء النفس فإن موضوعها يتناول بصورة شبه إجماعية الموضوع التالي : هل أن هذين النموذجين الاختباريين يتم واحدما الآخر ؟ هل يتعيّن إخضاع الواحد للآخر ؟ أو أنه يجب ازاحة أحدهما بحزم ؟ على أن هؤلاء العلماء متفقون على مبدأ اساسي هو ان تحقيقهم يجب أن ينطلق من الافعال Faits قبل كل شيء . وإذا ما تساءلنا عما هو الفعل ، نرى أنه يحدد بهذا الذي إذا ما صادفناه في سياق البحث بدا لنا وكأنه اغتناء غير منتظر وتجديد بالنسبة للأفعال السابقة . فلا يجب إذا أن نعتمد على الافعال لتنظم من تلقاء ذاتها في جملة خليصة من شأنها أن تدل بنفسها على معناها ، وبقول آخر ، إذا اطلقنا على الانتروبولوجيا اسم المدرسة التي ترمي الى تحديد جوهر الانسان والحالة الانسانية ، فعلم النفس - وحتى علم نفس الانسان - ما هو ولن يكون ابدأ نوعاً من الانتروبولوجيا ، فعلم النفس لا يهدف لتعريف وتحديد مسبقين لفرض بحثه ، ومبدأ الانسان لديه تجريبي صرف : إذ يوجد في العالم ذاته عدد من الخلائق تقدم للتجربة ميزات متماثلة . وهناك علوم أخرى كعلم الاجتماع وعلم وظائف الاعضاء تنبئنا عن وجود روابط موضوعية بين تلك الخلائق . فلا يكفي هذا لعالم النفس ، ليكتفي باختصار بحثه على تلك الخلائق .

ووسائل الانباء التي تُعدّ حولها ، هي في الواقع سهلة

المثال لانها تعيش في مجتمع ، فضلاً عن انها تمتلك لغة وتترك شواهد للبحث . بيد أن عالم الإنسان لا يرتبط قط بشيء : اذ يجهل ما اذا كان مبدأ الانسان غير كافي . قد يكون هذا المبدأ شديد الشمول : اذ لا شيء يفصح عما اذا كان بالامكان ترتيب الانسان البدائي الاسترالي في نفس الطبقة النفسية لعامل اميركي في سنة ١٩٣٩ ، وقد يكون شديد الضيق : اذ لا شيء ينبئ عن صورة فاصلة بين القردة العليا والخلقة البشرية . وعلى كل حال فإن عالم النفس يمتنع كل الامتناع عن اعتبار البشر المحيطين به اشباهاً له . فمبدأ التشابه هذا الذي قد يؤدي لبناء علم الانثروبولوجيا ، يبدو له واهياً وخطراً . سيقبل مختاراً - مع التحفظات الواردة أعلاه - بأن هناك انساناً ، أي انه ينتمي لطبقة معزولة مؤقتاً . غير انه سيعتبر أن طبيعة هذا الانسان يجب أن تلحق به فيما بعد ، ولا يمكنه - بوصفه منتمياً لتلك الطبقة - أن يحظى بغرض دراسة مميز ، إلا لغاية سهولة التجارب . سيتعلم اذاً من الآخرين انه انسان ولن تكشف له طبيعته كالنسان ، بصورة خاصة بحجة انه هو نفسه موضوع ما يدرس . والاستبطان Introspection لا يبدي هنا ، كما يبدي هناك الاختبار « الموضوعي » في سوى الافعال .

وإذا كان الواجب فيما بعد ايجاد مفهوم دقيق للإنسان - وهذا أمر مشكوك فيه - فإن هذا المفهوم لا يمكن أن يبحث إلا باعتباره تنويجاً لعلم تم انجازه ، أي إنه مفهوم بعيد الأجل . ثم انه لن يكون سوى افتراض توحيدي تم

اكتشافه لتنسيق وبلورة مجموعة الأحداث التي اتضحت ، اي ان فكرة الانسان ، إذا ما اتخذت معنى ايجابياً ، فلن تكون سوى فرضية تهدف لاقتزان مواد متباينة ، وأنها سوف لن تحرز احتمال كونها صحيحة إلا بنجاحها .

لقد حدد بيرس Pierce الافتراض كمجموعة النتائج التجريبية التي تسمح باستباق النظر في أمر ما . لذا فإن فكرة الانسان لا يمكن أن تكون إلا مجموعة الأفعال المثبتة التي تود جمعها . وإذا كان بعض علماء النفس قد لجأوا ، مع ذلك الى اعتبار مفهوم ما للانسان قبل إمكان الوصول الى استخلاص نهائي ، فإن ذلك إنما يتم بطابع فردي صرف ، وكسلك موصل ، أو بالاحرى كفكرة بمعناها الكانطي ، وإن واجبه الأول هو أن لا يغرب عن باهم بأنهم إنما لجأوا في ذلك لمفهوم تنظيمي .

ينتج عن ذلك أن علم النفس ، لتوقه ليكون علماً ، لا يمكن أن يقدم سوى مجموعة من الحوادث الشاذة التي لا رابط بينها في أكثر الأحيان . فما أكثر الاختلاف بين الخطأ بتصوير الأشياء بدقة حين تلوح كلمح البصر ومركب النقص ؟ إن هذا الخلل لا يتأتى من الصدفة بل من مبادئ علم النفس ذاتها . وانتظار الفعل هو بالتحديد انتظار الشيء المعزول ، وهو إشار الحادث على الجوهرى في سبيل الموضوعية ، وكذلك إشار العارض على الضرورى والبليلة على النظام . وهو مبدئياً اللقاء الرئيسى في المستقبل : « فيما بعد » عندما نكون قد جمعنا كثيراً من الافعال .

وفي الواقع أن علماء النفس لا يفقهون أنه من المستحيل بلوغ الجوهر عن طريق تكديس الأفعال ، استحالة بلوغ الوحدة عن طريق إضافة الأرقام الى بين ٠.٩٩ ، ولا نقول شيئاً إذا كان كل هدفهم جمع المعلومات التفصيلية ؛ غير اننا بكل بساطة لا نفهم الفائدة الناجمة عن عمل التكديس هذا .

أما اذا كانوا مدفوعين عن طريق ابجائهم للوصول الى خلاصة أنتروبولوجية ، فهم في أوج التناقض مع أنفسهم . سيقال إنها طريقة العلوم الطبيعية وطموحها . والإجابة على ذلك أن العلوم الطبيعية لا ترمي الى معرفة العالم ، بل الى شروط إمكانية بعض الحوادث العامة . فقد دلت نظرية العالم هذه أمام نقد المنهجين ، وهذا بالضبط لأنه ليس بالإمكان تطبيق مناهج العلوم الايجابية والاعتقاد بأنها ستؤدي لاكتشاف معنى هذه الجملة الخليصة التي نسميها العالم . بيد أن الانسان كائن من صنف العالم ذاته ، وقد يكون من الممكن ، كما يظن هيدجر Heidegger ، أن كلا من مبدأ العالم ومبدأ الواقع الانساني Dasein لا يمكن الفصل بينها . لهذا بالضبط ، على علم النفس أن يدع الواقع الانساني وشأنه ، إذا كان ثمة من وجود له .

الى ما يمكن أن تؤول مبادئ علم النفس وطرقه إذا ما طبقت على مثال خاص كدراسة الانفعال مثلاً ؟ ان معلومات عن الانفصال تضاف في البدء من الخارج الى سائر المعلومات عن الكائن النفسي . ويبدو الانفعال كجدة بالنسبة لسائر الظواهر

كالانتباه والذاكرة والإدراك الخ... اذ يمكنكم في الواقع ،
أن تدققوا في هذه الظواهر وفي المبدأ التجريبي الذي كوّنناه
عن علماء النفس ، وأن تبحسوا فيه كما تشاؤون قلن تجدوا
أية صلة رئيسية لها مع الانفعال . على أن عالم النفس يقبل
بأن للإنسان انفعالات لان التجربة تنبئه عن ذلك .
وهكذا فإن الانفعال هو من حيث المبدأ حادث قبل كل
شيء . ويشكل الانفعال في كتب علم النفس فصلاً من
فصول ، مثله في كتب الكيمياء ، مثال فصل الكس يرد
بعد فصلي الهيدروجين والكبريت . أما شأن امكانية وجود
الانفعال ، أي شأن بحث ما اذا كان تركيب الواقع الاساسي
يجعل الانفعالات ممكنة ، وعن الطريقة التي بها يجعلها ممكنة ،
فان ذلك يبدو بالنسبة لعالم النفس واهياً ومستحيلاً : اذ ما
ينفع البحث في امكان وجود الانفعال حين يكون الانفعال
موجوداً ؟ وسيلجأ عالم النفس ايضاً للتجربة كي يقرر حدود
الظواهر الانفعالية وتعريفها . وصحيح انه بإمكانه ان
يلحظ فكرة الانفعال لأنه بعد تدقيقه في الافعال سيرسم
الحدّ الفاصل بين أفعال الانفعال وغيرها من الافعال . وكيف
للتجربة ، في الواقع ، أن تقرر حدّاً فاصلاً اذا لم يكن
هذا الحدّ موجوداً في السابق ؟ لكن عالم النفس يؤثر التزام
الاعتقاد بأن الأفعال قد تجمعت من تلقاء نفسها أمام ناظره .
وعلى الآن أن ندرس الانفعالات التي وضعناها على حدة .
لبلوغ ذلك ، خلّيق بنا أن نحقق مواقف انفعالية
أو تنصرف الى هؤلاء الاشخاص الشديدي الانفعال والذين

يعثر عليهم علم الأمراض العصبية . عند ذلك نكب على تحديد عوامل هذه الحالة المعقدة ، فنعزل ردّات الفعل الجسدية التي يمكن إثباتها بدقة كاية . وكذلك المظاهر السلوكية وحالة الوعي Conscience بحد ذاته . انطلاقاً من ذلك ، يصبح بوسعنا أن ننسّق قوانيننا ونقترح شروحنا ، أي إنّنا سنحاول أن نصل اصناف العوامل الثلاثة في نظام لا رجوع عنه . فإذا كنت من انصار النظرية الذهنية Théorie intellectualiste مثلاً ، فسأقرّر سلسلة ثابتة لا ترد بين الحالة الذاتية باعتبارها سابقة ، وبين الاضطرابات الفيزيولوجية باعتبارها نتيجة . وإذا فكرت بالعكس ، مع انصار النظرية الطرفية périphérique « هذه الأم حزينة لأنها تبكي » فسأقتصر في الأساس على قلب نظام تلك العوامل ، والأمر الأكيد في كل حال ، هو أنني لن ابحث عن شرح الانفعال او قانونه في هيكل الواقع الإنساني العام والرئيسي ، بل بالعكس في نهج الانفعال نفسه ، بحيث أنها لن تكون سوى فعل بين أفعال آخر ، فعل مغلق على نفسه لا يسمح قط بفهم شيء خلاه ، أو التقاط واقع الإنسان الرئيسي من خلاله .

وقد نشأت قبل نحو ثلاثين عاماً ^(١) مدرسة جديدة هي المدرسة الفينومينولوجية phénoménologie كردة فعل على النواقص في علم النفس . لقد أخذ مؤسسها هوسرل

(١) صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٩ وعنها تنقل الترجمة المترجم

Husserl بهذه الحقيقة ، حقيقة اختلاف القياس بين الجواهر والافعال Essences et faits » وبأن من يبدأ بحثه على الافعال لن يتوصل أبداً لايجاد الجواهر ، فاذا بحثت عن الافعال النفسية التي تؤلف قاعدة الموقف الحسابي لرجل ما وهو يعدّ ويحسب ، فلن أصل قط الى إعادة بناء الجواهر الحسابية للوحدة والعدد والعمليات » وبدون ان تبطل فكرة التجربة - سيما ومبدأ الفينومينولوجيا هو بلوغ الأشياء ذاتها عن طريق الحدس الخيالي (Eidétique) - فقد ارتأت تبسيطها وايجاد مكان لتجربة الجواهر والقيم » ومن الواجب الاعتراف بأن الجواهر وحدها هي التي تسمح بتصنيف الافعال والتدقيق فيها . واذا لم نلجأ ضمناً الى جوهر الانفعال ، يضحى مستحيلاً علينا أن نميز المجموعة الخاصة بأفعال الانفعال من بين جمهور الافعال النفسية . والفينومينولوجيا تقضي إذا - وبما أننا لجأنا ، ضمناً ، لجوهر الانفعال - بأن نلجأ اليه علناً ، ونثبت مفاهيم محتواه كما تتفهم أيضاً ان فكرة الانسان بالنسبة لهذه المدرسة لا يمكن ان تكون مفهوماً تجريبياً ناتجاً عن التعميمات التاريخية » بل بالعكس ، نحن بحاجة لاستعمال الجوهر بدون ذكره » وهذا الجوهر هو اعتبارنا مسبقاً A priori أننا بشريون » وذلك لنعطي أساساً متيناً ، الى حد ما ، تعميمات عالم النفس ، غير أن علم النفس فضلاً عن ذلك ، باعتباره علماً لبعض الافعال الإنسانية لا يمكن أن يكون بداية لأن الأفعال النفسية التي نصادفها ليست قط أولية . بل هي ، في هيكلها الأساسي » ردّات

فعل الانسان أمام العالم ، فهي تفترض إذا كلاً من الانسان والعالم ولا يمكن أن تأخذ معناها الحقيقي إلا إذا أوضحنا أولاً هذين المبدئين أي الانسان والعالم . وإذا شئنا تأسيس علم النفس علينا أن نعود الى ما هو أعلى من الموضوع النفسي والى أعلى من موقف الإنسان في العالم ، علينا أن نعود الى كل من مصادر الانسان والعالم والموضوع النفسي الوعي التجاوزي والتكويني الذي نصل إليه عن طريق « *Réduction phénoménologique* » الفينومينولوجي أو « وضع العالم بين هلالين » فهذا الوعي هو الذي سنسأله وإن ما يعلمي أجوبة هذا الوعي قيمتها كونه شخصياً بالضبط وهكذا فإن هوسرل عرف كيف يستفيد من تقارب الوعي المطلق بالنسبة لنفسه « ذلك التقارب الذي لم يعرف عالم النفس كيف يفيد منه باطمئنان كلي ، لأن كل وعي انمّا هو موجود بمقدار ما هو وعي لوجوده . غير انه هنا ايضاً وكما في السابق ، سيأبى أن يسأل الوعي عن الأفعال: وسنجد على الصعيد التجاوزي تشوّش علم النفس ، وإن ما سيحاول وصفه وتثبيته بفاهيم ، هي بالضبط تلك الجواهر التي تتدبر انبساط الحقل التجاوزي . سيكون هناك إذا ، على سبيل المثال ، علم فينومينولوجي للانفعال من شأنه — بعد « وضع العالم بين هلالين » — أن يدرس الانفعال كحادث تجاوزي صرف ، وذلك ليس باتجاهه نحو الانفعالات الخاصة « بل ببحثه للوصول الى جوهر الانفعال التجاوزي وتوضيحه كصنف منتظم من اصناف الوعي » من هذا التقارب

المطلق ايضاً بين المحقق وموضوع التحقيق انطلق فينومينولوجي
آخر هو هيدجر Heidegger .

إن ما سيفرق بين البحث عن الانسان وبين سائر
اصناف المسائل الدقيقة ، هو بالضبط هذه الواقعة المشجعة ،
وهي ان الحقيقة الانسانية هي نفسنا : « والموجود الذي
يتوجب علينا تحليله ، هو نفسنا » على حد قول هيدجر .
« ان وجود هذا الموجود هو ملك للشخص » فليس سواء
إذا ان يكون هذا الواقع الانساني أنا ، لأن الوجود
بالنسبة للواقع الانساني هو دائماً وبالضبط ، تحمل هذا
الوجود ، أي ان يكون الواقع الانساني مسؤولاً عنه بدلاً
من أن يتلقاه من خارج كما هو الأمر بالنسبة للحجر . وبما أن
« الواقع الانساني » هو في الجوهر كون ذاته ممكناً ، فان
هذا الموجود يستطيع ان « يختار » نفسه من ضمن وجوده ،
ان يربح نفسه ؛ وقد يضيع نفسه . ان هذا « التحمل »
للذات الذي يميز الواقع الانساني يفترض تفهم الواقع الانساني
نفسه بنفسه ، مهما كان هذا التفهم مظلماً . « في وجود
هذا الموجود يأتي هذا الموجود بنفسه لوجوده » وذلك أنه
في الواقع ، ليس التفهم صنعة آتية من خارج الواقع الانساني
بل هي عين طريقته في الوجود . وهكذا فان الواقع الانساني
الذي هو أنا Moi يتحمل وجوده وهو يتفهمه . وهذا التفهم
هو تفهمي أنا . فأنا اذا قبل كل شيء كائن يتفهم واقعه
كانسان بصورة اكثر أو أقل . وهذا يعني أنني اجعل نفسي
انساناً حين اتفهم نفسي كإنسان . قد أتساءل اذاً ، وعلى

ضوء هذا التساؤل ، اجري بنجاح تحليلاً للواقع الانساني «
قد يفيدني في تأسيس نوع من الانتروبولوجيا . وهنا ايضاً
بالطبع ليست القضية قضية استبطان Introspection ، لأن
الاستبطان لا يصادف في البدء سوى الفعل » ثم لأن تفهمي
للواقع الانساني مظلم وغير اصيل ، ومن الواجب تبسيطه -
وتقويمه . وعلم تأويل الوجود سيؤدي على كل حال لبناء
أنتروبولوجيا من شأنها أن تكون قاعدة لكل علم نفس .
فنحن اذاً في الموقف المعاكس لموقف علماء النفس لأننا ننطلق
من هذه المجموعة الخليصة التي هي الانسان ولأننا نثبت جوهر
الانسان قبل ان نبدأ بعلم النفس .

والفينومينولوجيا هي على كل حال دراسة للحوادث
phénomène قبل أن تكون دراسة للأفعال . كما تفهم بالحدث
« ما ينبىء عن نفسه » ، أي ما واقعه هو مظهره بالضبط
« وليس هذا » الإنباء عن النفس « اعتبارياً ... فوجود
الموجود ليس بالشئ » الذي وراءه « شئ » لا يظهر .
وفي الواقع أن الوجود بالنسبة للواقع الانساني هو بالنسبة
لهيدجر تحمل الكينونة الذاتية في غمط تفهم وجودي ،
والوجود بالنسبة للوعي هو إظهار الذات بالنسبة لهوسرل «
وبما أن المظهر يعني هنا المطلق » فالمظهر هو الذي يجب
وصفه وسؤاله . من وجهة النظر هذه ، وفي كل موقف
انساني - كالانفعال مثلاً ، لأننا كما نتكلم عنه قبل قليل
يرى هيدجر أننا نجد بجمال الواقع الانساني « لأن الانفعال
هو الواقع الانساني الذي يتحمل نفسه . » ويتجه منفعلاً نحو

العالم . وهو سرل يرى من جهته أن الوصف الفينومينولوجي
للاتفعال سيلقي ضوءاً على هياكل الوعي الرئيسية ، لأن
الاتفعال هو وعي بالضبط . وبالعكس سي طرح سؤال لم
يشتبه به عالم النفس . هل نستطيع أن نفقه أنواعاً من
الوعي لا تتضمن الاتفعال في إمكانياتها ، أو هل يحذر أن
نرى فيه هيكلاً للوعي لا يستغنى عنه ؟ وهكذا فإن
الدارس الفينومينولوجي سيسأل . الاتفعال عن الوعي وعن
الإنسان ولن يسأله عما هو وحسب بل عما لديه من علم
عن كائن من بين خصائصه كونه قادراً على أن يكون منفعلاً
وبالعكس ، سيسأل الوعي والواقع الإنساني عن الاتفعال .
ما يجب إذاً أن يكون الوعي ليصبح الاتفعال ممكناً . أو
ليصبح ضرورياً .

نستطيع أن نفهم ، الآن ، أسباب حذر عالم النفس من
الفينومينولوجيا . وحذر عالم النفس الأولي إنما يتم في الواقع
عن طريق اعتبار الحالة النفسية بحيث أنه ينتزع منها كل
دلالة . والحالة النفسية بالنسبة إليه هي دائماً فعل ، وهي
لكونها فعلاً *Fait* عارضة على الدوام . إن هذه الخاصة
العارضة هي نفسها التي يتمسك بها عالم النفس أكثر ما يتمسك
وإذا سألنا أحد العلماء : لماذا تتجاذب الأجسام حسب قانون
نيوتن *Newton* ؟ سيجيب ! لست أدري ، لأن الأمر
كذلك . وإذا سألناه وعلام يدل هذا الانجذاب ؟ سيجيب :
أنه لا يدل على شيء ، بل هو موجود ، بالمقابل نرى عالم
النفس إذا ما سئل عن الاتفعال يجيب باعتزاز . هو

موجود « لماذا ؟ لست أدري ، اني ألحظ ذلك فقط . ولا أعرف له أية دلالة . » أما بالنسبة للفينومينولوجي فبالعكس إن كل فعل انساني ذو دلالة في جوهره . واذا انتزعت دلالاته ، انتزعت طبيعته كفعل انساني . تكون مهمة الدارس الفينومينولوجي اذاً دراسة مدلول الانفعال ، فما علينا أن نفهم بذلك ؟

دلّ يعني ارشد الى شيء آخر ارشاداً يؤدي بتوسيع الدلالة الى ايجاد المدلول عنه بالضبط . وبالنسبة لعالم النفس لا يدل الانفعال على شيء لأنه يدرسه كفعل ، اي انه يقتطعه من مجمل الباقي . فيصبح الانفعال اذاً ليس له دلالة من اصله ، ولكن اذا كان كل فعل انساني ذا دلالة حقاً ، فان للانفعال الذي يدرسه عالم النفس هو بطبيعته ميت ، عديم النفسية ، عديم الانسانية ، واذا شئنا ان نجعل من الانفعال ، على طريقة الدارسين الفينومينولوجيين ، حادث وعي حقيقي ، فيجب بالعكس أن نعتبره ذا دلالة منذ البداية . أي اننا سنؤكد أنه موجود بقدر ما هو ذو دلالة . ولسنا نضل الطريق في البدء في دراسة الأفعال الفيزيولوجية لأن هذه الأفعال مجرد ذاتها لا تعني شيئاً تقريباً . فهي موجودة « ليس إلا » . غير اننا بالعكس ، سنحاول تبسيط الشيء المدلول بتوسيعنا مدلول أنواع السلوك والوعي الانفعالي . ونحن نعرف في الأصل ما هو هذا المدلول عنه : فالانفعال يدل حسب طريقته على مجمل الوعي ، وإذا نظرنا على الصعيد الوجودي « دلّ آتئذ على الواقع الانساني . وليس الانفعال

- حادثاً Accident لأن الواقع الانساني ليس بمجموعة أفعال . بل انه يعبر بطريقة محدّدة عن الجملة الخليصة الانسانية في ذاتها . وبهذا لا يجب قط ان نعتبره كنتيجة للواقع الانساني . فهو هذا الواقع الانساني نفسه يتحقق على شكل « انفعال » . ومنذ الآن اصبح من المستحيل اعتبار الانفعال بمثابة اضطراب نفسي فيزيولوجي . فان له جوهره ، وهياكله الخاصة . وقوانين ظهوره ، ودلالته . ولا يمكن أن يتأتى من خارج الواقع الانساني . بل بالعكس ان الانسان هو الذي يتحمل انفعاله ويصبح الانفعال بالنتيجة شكلاً منتظماً من أشكال الوجود الانساني .

وليس في نيتنا الآن أن نجرب دراسة فينومينولوجية عن الانفعال . فدراسة كهذه اذا ما توجب تخطيطها ، ستتناول الجانب العاطفي Affectivité كخط وجودي للواقع الانساني. بيد ان مطامحنا أكثر تحديداً نود أن نحاول أن نرى ما اذا كان علم النفس الصرف يستطيع ان يستمد من الفينومينولوجيا نمطاً له وتعاليم ، مطبقين ذلك على قضية دقيقة وملموسة هي قضية الانفعال وسنظل متفقين على أن علم النفس لا يضع الانسان موضوع البحث أو العالم بين هلالين . بل يعتبر الإنسان في العالم ، كما يبدو من خلال تعدد المواقف : في المقهى وفي العائلة وفي الحرب ، وأن ما يهمنا بشكل عام هو الإنسان في الموقف Homme en situation والحالة هذه . وكما رأينا في السابق أن علم النفس خاضع للفينومينولوجيا لأن دراسة ايجابية حقّة عن الانسان في

الموقف عليها أن توضح بادىء ذي بدء مبدأ كل من الإنسان والعالم والكائن في العالم Lire dans le monde والموقف . بيد أن الفينومينولوجيا لم تكد ترى النور « كما أن جميع هذه المبادئ بعيدة كل البعد عن الوضوح النهائي فهل يتعين على علم النفس أن ينتظر بلوغ الفينومينولوجيا مرحلة النضوج ؟ نحن لا نعتقد ذلك . بيد أن هذا العلم اذا كان لا ينتظر نشوء نوع من الانتروبولوجيا بصورة نهائية ، عليه أن لا يغفل ان هذه الانتروبولوجيا صائرة الى التحقيق ، فاذا ما تحققت يوما ما فإن على جميع المدارس السيكلوجية أن تنطلق منها وعلى علم النفس في الوقت الحاضر الا يهدف لجني الافعال قدر اهتمامه للحوادث Phénomènes ، أي بالضبط الأحداث النفسية بقدر ما هي دالة لا بقدر ما هي أفعال صرفة . فسيعترف علم النفس مثلاً بأن الانفعال ليس موجوداً كحادث جسدي ، لأن الجسد لا يمكن أن ينقل ما لم نضف معنى من المعاني على نشاطاته ، وسيبحث علم النفس حالاً بما وراء الاضطرابات الشريانية واضطرابات التنفس ، وهذا الماوراء Au-delà انما يكون معنى السرور أو معنى الحزن . بيد أنه نظراً لأن هذا المعنى ليس صفة ملقاة من خارج على عائق السرور أو الحزن ، ونظراً لأنه ليس موجوداً إلا بقدر ما يظهر نفسه ، أي من حيث « يتحمله » الواقع الانساني « فالوعي نفسه اذا هو الذي سيسأل ، لأن السرور ليس سروراً إلا بمقدار ما يظهر نفسه كذلك . ولان علم النفس لا يبحث بالضبط عن الافعال بل عن الدلالات ،

وسيتغلى عن طرق الاستبطان الاستقرائية وعن التجريبية الخارجية كي يسعى فقط في فهم جواهر الافعال وتثبيتها . وسيصبح علم النفس أيضاً علماً خيالياً ^(١) Eidétique ، غير انه لن يهدف من خلال الحادث النفسي الى المدلول عنه بحد ذاته ، أي الى كلية الانسان بالضبط . فعلم النفس ليس لديه الوسائل للمجازفة بدراسة كهذه . وان ما سيهمه هو الحادث فقط من حيث هو دال . كما انه قد يكون بوسعي أن أفهم جوهر « البروليتاريا » من خلال كلمة « بروليتاريا » في هذا الحال أكون بصدد دراسة علم الاجتماع . غير أن اللغوي يدرس كلمة بروليتاريا من حيث أنها تعني بروليتاريا وسيكون قلقاً لتقلبات الكلمة من حيث أنها حاملة لدلالة . وعلم كهذا ممكن بالتام .

فما ينقص هذا العالم ليكون حقيقياً ؟ أن يكون قد صنع براهينه . لقد بينا أنه اذا كان الواقع الإنساني يبدو لعالم النفس كمجموعة من المعطيات الغريبة ، فمرد ذلك إلى أنه قد وضع نفسه مختاراً في المجال الذي يبدو من خلاله هذا الواقع غريباً . غير ان هذا لا يلزم ألا يكون الواقع الإنساني مجموعة بالضرورة .

فنحن برهنا فقط على أن هذا الواقع لا يمكن أن يبدو بخلاف ذلك بالنسبة لعالم النفس . يبقى أن نعرف إذا كان الواقع هذا ينطوي في عمقه على تحقيق فينومينولوجي ؟ أي

(١) خيالياً وضعت كعقابل لكلمة Eidétique وهي من أصل يوناني وتعني ما هو صادر عن الخيال ، ولكن مسقطاً صورته الى خارج .
الترجم

إذا كان الانفعال مثلاً هو حادث دالّ حقاً . كي نطمئن
إلى ذلك « ليس هناك سوى وسيلة ، هي تلك التي تنادي
بها الفينومينولوجيا ألا وهي « الذهاب إلى الأشياء ذاتها » .
ونرجو أن تعتبر الصفحات التالية كتجربة لعلم نفس
فينومينولوجي ، وسنحاول أن نضع أنفسنا على صعيد الدلالة
وأن ندرس الانفعال كحادث .

تخطيط نظرية الانفعال

١ - النظريات الكلاسيكية .

نحن نعرف جميع الانتقادات التي أثارها نظرية الانفعال الطرفية Périphérique فكيف نشرح الانفعالات الدقيقة Fines ؟ والسرور السلي ؟ وكيف تقبل بأن ردود الفعل الجسمية السطحية يمكن ان تنبىء عن حالات نفسية قيّمة ؟ وكيف يمكن للتغيرات الكمية شبه المتواصلة في الوظائف النباتية ان تأتي مطابقة لسلسلة وصفية لحالات ليست متطابقة فيما بينها . فالتغيرات الفيزيولوجية مثلاً ، التي تنطبق على الغضب لا تختلف إلا من حيث الحدة عن تلك التي تنطبق على السرور . (كازدياد سرعة التنفس ، وارتفاع توتر العضلات ، وازدياد التبادلات البيوكيائية ، وارتفاع الضغط الشرياني : الا ان الغضب ليس نوعاً من السرور الأكثر حدة ، فهو شيء آخر من حيث يبدو للوعي على الأقل . فلن نفيد من شيء اذا أظهرنا في السرور الاثارة التي تعدنا للغضب ، وان نذكر أولئك المعتوهين الذين ينتقلون بصورة متواصلة من السرور الى الغضب (بتأرجحهم مثلاً فوق مقعد ثم الاسراع في هذا

التأرجح) . فالمعتوه الغاضب ليس « سروراً الى حد بعيد » . حتى وان انتقل من السرور الى الغضب ، فالغضب ليس صنواً للسرور (ولا شيء يسمح لنا بالتثبت من تدخل مجموعة من الاحداث النفسية أثناء الانتقال ذاك)

ويبدو لي أن الأساس المشترك لجميع هذه الملاحظات يمكن أن ينحصر كالآتي : يتميز وليم جيمس W. James في الانفعال بمجموعتين من الحوادث « مجموعة من الحوادث الفيزيولوجية ، ومجموعة من الحوادث السيكلولوجية التي سنسميها على أثر مجموعة الحوادث الأولى - حالة الوعي . والأساس في نظريته هو أن حالة الوعي المسماة « سروراً ، وغضباً الخ . » ليست سوى وعي التحركات الفيزيولوجية وإسقاطها في الوعي اذا شئنا ، بيد أن جميع نقاد جيمس ممن فحصوا تباعاً « حالة » الوعي « الانفعال » ثم التحركات الفيزيولوجية اللاحقة بها ، لا يعترفون أن في هذه « الحالة » إسقاطاً Projection لتلك التحركات . فهم يجدون فيها « أكثر » بل « شيئاً آخر » - وعوه أم لم يعوه . ثم إننا مهما تطرّفنا في تخيل واضطرابات الجسم قلن نستطيع أن نفهم لماذا يكون الوعي المطابق لهذه الاضطرابات وعياً « مرتاعاً » فالارتفاع حالة مضنية جداً بل إنها حالة لا تحتمل ، وليس معقولاً ان تبدو هذه الحالة الجسدية - إذا ما اخذت بذاتها لذاتها - على هذه الصورة العنيفة . « شيء آخر » هو أنه في الواقع ، ولو فهم الانفعال موضوعياً ، فلا يمكن أن يبدو بمثابة اضطراب فيزيولوجي ، فالانفعال « لكونه

فعلاً واعياً لا يمكن ان يصبح مجرد اضطراب واختلاط ، بل .
أنّ له معنى ، وهو يدلّ على شيء . وبهذا ، لا نغني
فقط أنه يأتي كصفة صرفة ، بل يلقي بنفسه كنوع من
علاقة كيانتنا النفسي مع العالم . وهذه العلاقة — او بالأحرى
الوعي الذي ندركه عنها — ليس بمثابة صلة مختلطة بين الأنا
والكون ، بل هي هيكل منتظم قابل للوصف .

وأنا لا أرى ان تلك الحساسية الدماغية العصبية التي
اكتشفها . مجدداً نفس أولئك الذين ينتقدون جيمس ، لا
أراها تسمح بإجابة شافية حول القضية . ففي البداية كانت
لنظرية جيمس الطرفية ميزة كبرى ، اذ انها لم تكن تهتم
إلا بالاضطرابات الفيزيولوجية التي يمكن التقاطها بصورة مباشرة
أو غير مباشرة . فنظرية الحساسية الدماغية تدعو لاضطراب
دماغي لا يمكن التثبت منه . لقد أجرى شرنفتون
Sherrington تجارب على الكلاب ، ووسعنا بلا ريب أن
نمدح مهارته كجراح . غير ان هذه التجارب اذا ما اخذت
بجد ذاتها لا تبرهن أي شيء . فإذا كان رأس الكلب
المعزول عملياً عن جسمه يعطي امارات الانفعال ، فلا أظن
أن من حقنا ان نخلص الى أن الكلب يعاني انفعالاً تاماً .
ثم انه لو افترضنا انه من الممكن إثبات الحساسية الدماغية
العصبية ، فهل يوسع الاضطراب الفيزيولوجي ، كائناً ما كان
نوعه ، أن يرشدنا لطبيعة الانفعال المنتظمة ؟

هذا ما فهمه جانيه Janet جيداً ، ولكنه أساء التعبير
عنه نوعاً حين قال إن جيمس في وصفه الانفعال قد نسي

العنصر النفسي . وجانيه إذ يضع نفسه على صعيد موضوعي
صرف ، لا يريد أن يسجل سوى تظاهرات الانفعال
الخارجية . ولكن ، حتى ولو لم نعتبر سوى الحوادث
الجسمية التي يمكن وصفها وكشفها من الخارج ، يرى جانيه أن
من شأن هذه الحوادث ان تصنف حالاً في فئتين : الحوادث
النفسية أو انواع السلوك ، ثم الحوادث الفيزيولوجية .
فإن نظرية للانفعال تريد أن تعيد للعنصر النفسي
نصيبه الرئيسي عليها أن تجعل من الانفعال سلوكاً . غير
ان جانيه شأن جيمس حساس أمام مظهر الاضطراب
الذي يبيده كل انفعال فهو يجعل من الانفعال إذاً سلوكاً أقل
انطباقاً من غيره او اذا شئنا ، فسلوكاً غير منطبق ، أو
سلوكاً فاشلاً . وحين تكون المهمة عسيرة جداً وليس
بإمكاننا أن نتبع السلوك الأعلى الذي ينطبق عليها ،
فإن الطاقة النفسية المصدرة تضع في طريق آخر ، إذ
تتبع سلوكاً وضعياً يلزمه تور نفسي أقل . إليكم مثلاً
تلك الفتاة التي اخبرها ابوها بأنه يشكو آلاماً في ذراعه وانه
يخاف قليلاً من الشلل . فانطرح في الارض فريسة لانفعال
عنيف عاودها بعد ذلك بأيام بنفس العنف وحملها في النهاية
على طلب مساعدة الأطباء . اثناء العلاج اعترفت بأن
فكرة العناية بأبيها والعيش حياة قاسية كحارسة لمرضى هي
التي بدت لها لا تطاق لأول وهلة . فالانفعال يبدي هنا
إذاً سلوكاً فاشلاً فهو البديل لسلوك حارسة مريض لا
يمكن احتماله ^(١) . ويورد جانيه كذلك في كتابه عن

(١) اعتبرها المؤلف عبارة واحدة وكتبها بالفرنسية على الشكل التالي :
« Conduite - de - garde - malade - ne - pouvant - être - tenue »

الهوس والجنون Obsession et psychasténie قضية مرضى
عديدين جاؤوه معترفين بأنه ليس في استطاعتهم إنهاء اعترافهم
قبل ان يجهشوا بالبكاء ، بل وتعتريهم احياناً أزمة عصبية .
وهنا أيضاً نرى السلوك ، الواجب اتباعه عسيراً جداً . فالبكاء
والأزمة العصبية تمثل سلوكاً فاشلاً يحل محل الأول بالاشتقاق
dérivation ولا نتوقف كثيراً هنا ، فالأمثلة كثيرة . فمن
منّا لا يذكر أنه حين كان يمازح رفيقاً له ، كان يحافظ
على هدوئه طالما ان الممازحة متكافئة ، ثم يثور في نفس
اللحظة التي يعجز فيها عن الاجابة . وهكذا فان جانيه
يستطيع ان يفخر بأنه أعاد للانفعال عنصره النفسي ! فوعينا
للانفعال - ذلك الوعي الذي ما هو هنا سوى حادث
ثانوي ^(١) - ليس بعد الان مجرد مقابل للاضطرابات
الفيزيولوجية ، بل هو وعي لفشل ما ولسلوك فاشل . تبدو
النظرية مدهشة ، فقد اصبحت موضوعاً نفسياً محافظة على
بساطتها الآلية كلياً فحادث الاشتقاق ليس اكثر من تبدل
في الطريق لدى الطاقة العصبية المصدرة .

ولكن أي غموض يكتنف هذه المبادئ القليلة الواضحة
في ظاهرها . واذا احسنا اعتبار الاشياء ، نلاحظ أن جانيه
لا يتوصل الى تجاوز جيمس إلا باستعماله ضمناً نوعاً من
الغائية Finalité تدحضها نظريته علنياً . فما هو في الواقع
السلوك الفاشل ؟ هل يجب أن نعتبره فقط بمثابة بديل آلي

(١) أي انه ليس حادثاً مضافاً يمكن الاستغناء عنه Epiphénomène
المؤلف

لسلوك أعلى لم نستطع التزامه ؟ في هذه الحال ستتفجر الطاقة العصبية تبعاً للصدفة وحسب قانون أقل مجهود . غير ان ردات الفعل الانفعالية لا تظل آتئذ سلوكاً فاشلاً بقدر ما هي نوع من غياب السلوك . اذ يصبح هناك رد فعل موزع مكان رد الفعل المنطبق ، ويحدث هناك تشوش . ولكن أليس هذا ما يقوله جيمس بالضبط ؟ أفلا يحصل الانفعال بالنسبة لجيمس في لحظة عدم الانطباق المفاجيء ؟ أفلا يحدث هذا الانفعال في مجموع الاضطرابات التي يأتي بها عدم الانطباق هذا للجسم . وجانيه بسلا ريب يشدد على الفشل أكثر من جيمس ، ولكن ما يعني ذلك ؟ فاذا اعتبرنا الفرد ، موضوعياً ، بمثابة جهاز لانواع السلوك ، واذا كان الاشتقاق يحدث آلياً ، فالفشل ليس شيئاً ، وليس موجوداً ، بل ان هناك مجرد حلول مجموعة التظاهرات الجسدية محل السلوك . وحتى يتخذ الانفعال المدلول التقسي للفشل ، يجب على الوعي أن يتدخل وبضفي عليه تلك الدلالة وان يحتفظ بالسلوك الاعلى بمثابة شيء ممكن وانه سيدرك الانفعال تماماً كفشل بالنسبة لهذا السلوك الاعلى . ولكن هذا يوكل الى الوعي دوراً تكوينياً ، وهذا ما لا يريده جانيه بأي ثمن . واذا كنا نريد المحافظة على معنى نظرية جانيه ، نصبح عند ذلك ملازمين بالاخذ بموقف فالون Wallon ففي مقال في مجلة الدروس والمحاضرات Revue des cours et conférences يقترح فالون هذا التفسير : يوجد عند الطفل - دورة عصبية بدائية . وإن هذه الدورة تحكم مجموعة ردود فعل الوليد

امام الدغدغة والالم الخ .. (الارتعاش) انقباض العضلات
سرعة دقات القلب الخ) وتكون هكذا أول انطباق
جسدي ، انطباق موروث بالطبع . نأخذ بعد ذلك علماً
عن انواع السلوك كما نحقق تركيبات جديدة أي دورات
جديدة ، ولكن حين لا نستطيع تجاه موقف جديد وعسير
أن نجد السلوك المنطبق الذي يناسب هذا الموقف ، يكون
قد حصل آنئذ رجوع الى الدورة العصبية البدائية .. نرى
أن هذه النظرية إنما تمثل انتقال وجهات نظر جانيه الى
صعيد السلوكية الصرفة Behaviorism لان ردود الفعل
الانفعالية تبدو لا كمجرد تشويش بل بمثابة انطباق قليل
حين يبدأ جهاز الانعكاسات الدفاعية Réflexes défensifs
المنتظم ، تكون الدورة العصبية لدى الطفل غير منطبقة
اذا ما قيست بحاجات الشخص البالغ ، وهو يجد ذاته
منظمة حركية شبيهة بالانعكاس التنفسي مثلاً . بيد
أننا نرى أيضاً ان هذه النظرية لا تختلف عن نظرية
جيمس الا بافتراضها وحدة جسدية تصل بين جميع
التظاهرات الانفعالية . وبديهي ان جيمس كان قد قبل بوجود
دورة عصبية كهذه فيما لو تم اثباتها . وكان قد اعتبر هذا
التعديل عن نظريته بسيطاً جداً لانه يتم على الصعيد
الفيزيولوجي الصرف . وهكذا اذاً نجد ان جانيه - اذا
ما تمسكنا بحرفية نظريته - أشد قرباً الى جيمس مما يريد ،
وقد فشل في إعادة ادخال «العنصر النفسي» في الانفعال .
كما انه لم يشرح لماذا توجد أنواع مختلفة من السلوك الفاشل

ولماذا استطيع أن اجابه اعتداء مفاجئاً ما بالخوف او
بالغضب . والامثلة التي يستشهد بها تعود جميعها تقريباً الى
انقلابات انفعالية لا تفريق بينها (كالبكاء والنوبة العصبية
الخ ..) هي أقرب للصدمة الانفعالية بحد ذاتها ، منها
للافعال الموصوف .

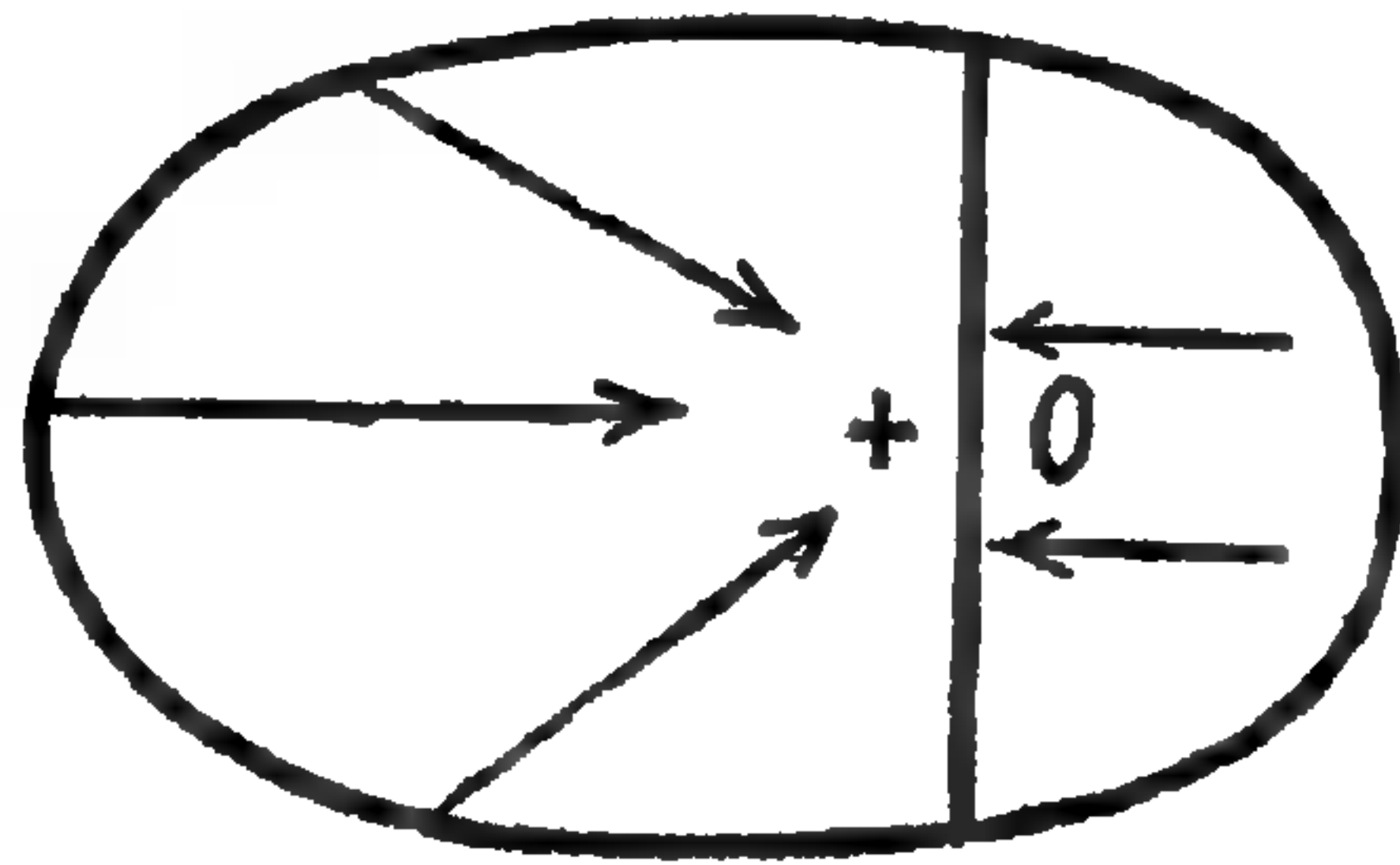
ولكن يبدو أن لدى جانيه نظرية ملحقة للافعال
- ولانواع السلوك عامة - نظرية من شأنها أن تعيد
إدخال الغائية دون تسمية . وفي محاضراته العامة عن الجنون
وعن الجانب العاطفي ، يشدد جانيه كما ذكرنا - على
طبيعة الاشتقاق الآلية ، غير أنه يجعلنا نفهم من خلال
أوصافه « أن المريض يرتقي في السلوك الأدنى حتى لا يلتزم
السلوك الأعلى . وهنا ، ترى المريض نفسه ينادي بفشله ،
حتى قبل أن يباشر بالمقاومة ، ويأتي السلوك الانفعالي ليلقي
ستاراً على استحالة التزام السلوك المنطبق . ولنستعد المثل
الذي ذكرناه آنفاً : مثل المريضة التي جاءت تقابل جانيه «
جاءت تقضي إليه بسرّ اضطراباتها « وأن تصف له
وساوسها بدقة . غير أنها لا تستطيع ذلك ، فهو سلوك
اجتماعي شديد الصعوبة بالنسبة لها . عندها أجهشت بالبكاء
ولكن هل هي تبكي لأنها لا تستطيع أن تقول شيئاً ؟ وهل
دموعها تمثل مجهوداً خائباً للأقدام على شيء « وانقلاباً موزعاً
يمثل تفكك سلوك عسير جداً ؟ أم هل انها تبكي لئلا
تقول شيئاً ؟ يبدو الفارق بين هذين التفسيرين ضئيلاً للوهلة
الاولى ! فني كلا الافتراضين يوجد سلوك يستحيل التزامه «

وفي كلا الافتراضين يتمثل حلول تظاهرات موزعة محلّ السلوك . لذا نرى جانبيه ينتقل بيسر من الافتراض الاول الى الثاني ، وهذا ما يسبب التباس نظريته . بيد أن هوّة تفصل في الحقيقة ، بين ذينك التفسيرين . فالتفسير الاول هو في الواقع آلي صرف - وقد رأيناه - شديد القرابة في عمقه لنظريات جيمس . أما التفسير الثاني ، فإنه يأتي لنا بالجديد حقاً . فهو وحده يستحق لقب النظرية السيكلوجية للانفعالات ، وهو وحده يجعل من الانفعال سلوكاً . وذاك انه ، لو أعدنا ، في الواقع ، إدخال الغائية Finalité هنا ، استطعنا أن ندرك أن السلوك الانفعالي ليس قط تشوشاً ، بل هو جهاز منتظم لوسائل تهدف الى غاية . وقد « جاء » هذا الجهاز ليستر ، ويبعد ، ويحل محل سلوك لا نستطيع أو لا نريد التزامه . عند ذلك يصبح تفسير الانفعالات المتفرقة يسيراً ، اذ أن تلك الانفعالات يشكل كل منها وسيلة مختلفة لتذليل صعوبة ما ، أو مهرباً خاصاً أو خداعاً خاصاً .

بيد أن جانبيه أفضى إلينا بما استطاعه فكان شديد البعد عن اليقين ، منقسماً بين الغائية العفوية والآلية المبدئية . فلن نسأله هو أن يعرض نظرية الانفعال - السلوك تلك . وسنجدها عند تلامذة كوهلر Kohler لا سيما عند لوين Lewin ودامبو Dembo وهذا ما كتبه بول غيوم P. Guillaume في علم نفس الشكل psychologie de la forme . فلنأخذ المثال الأكثر بساطة ، كأن نقترح على أحد الاشخاص أن

يلامس شيئاً موضوعاً على كرسي ، ولكن بدون أن يضع
رجليه خارج دائرة مرسومة على الأرض . فقد اقتصت
المسافات بحيث يصبح بلوغ الشيء شديداً الصعوبة أو مستحيلاً
بطريقة مباشرة ، غير أنه بالإمكان حلّ المعضلة عن طريق
وسائل غير مباشرة ... وهنا تأخذ القوة الموجهة نحو الشيء
معنى واضحاً وملحوساً ، ويوجد في هذه المسائل من جهة
أخرى عائق في طريق تنفيذ العمل مباشرة ، والعائق قد
يكون مادياً أو معنوياً ، فهو على سبيل المثال قاعدة نريد
مراقبتها . وهكذا - نرى في المثل الذي ذكرناه - أن
الدائرة التي لا يمكن اجتيازها تشكل في نطاق إدراك
الشخص حاجزاً تنطلق منه قوة موجهة باتجاه معاكس للقوة
الأولى . فيتضمن صراع تينك القوتين نوعاً من التوتر في
المجال الحادّثي ... والحلّ الذي عثر عليه ، هو العمل الناجح
الذي يضع حداً لذلك التوتر ... فهناك سيكولوجيا حادة ،
الحلول أو الاستبدال ، ساهمت فيها مدرسة لوين مساهمة
قيمة . وشكلها شديد التغير ، فأنصاف النتائج التي يمكن
بلوغها يمكن أن تساهم في تثبيتها . وقد يسهّل الشخص الحادثة
أحياناً إذ يتحرّر من بعض الشروط المفروضة في الكمية
وميزات السرعة والمدة ، كما يمكنه حتى تعديل نوعية المهمة
وفي حالات أخرى ، يكون المقصود حوادث غير واقعية أو
رمزية . فننفذ حركة خائبة في اتجاه الحدث ، ونصف
الحدث بدلاً من أن نقوم به ، وتخيّل مناهج غيبية خيالية
(إذا كان لدي ... من الواجب ...) من خارج الشروط

الواقعية او المفروضة والتي تسمح بإتيان الحدث . واذا كانت
حوادث الاستبدال مستحيلة أو اذا كانت لا تأتي بقرار كاف ■
فإن التوتر المستمر يتظاهر عن طريق نزعة الرجوع عن التجربة ■
والهرب من الميدان او الانطواء على الذات في موقف سلبي .
وفي الواقع انه قلنا أن الشخص يجد نفسه خاضعاً ، لانبجذاب
الهدف الايجابي ، ولفعل الحاجز الرادع والسلبي . فضلاً عن أن
قبول الخضوع للتجربة قد اضفى على كافة اشياء الميدان قيمة
سلبية بمعنى أن جميع المفارقات الغريبة عن المهمة تصبح مستحيلة
بالضرورة الفعلية . فيكون الشخص اذا حبيساً نوعاً ما في
اطار مقفل من جميع الجهات ؛ وليس فيه سوى مخرج
ايجابي ، لكنه مغلق بواسطة الحاجز المعين . والموقف ينطبق
على الرسم الهندسي التالي :



والتخلص Evasion ليس سوى حل قاس لانه يجب تحطيم
الحاجز العمومي وقبول انتقاص الانا Moi والانطواء على
الذات الذي يقيم بين الميدان المضاد والانا حاجزاً للحماية ■
هو أيضاً بدوره حلٌ ضعيف .

واستمرار التجربة يمكن أن يؤدي في مثل هذه الحالات

الى اضطرابات انفعالية ، وهي اشكال أكثر بدائية للانفراج من التوتر . ونوبات الغضب الشديدة العنف أحياناً لدى بعض الأشخاص تجد لها دراسة وافية في بحث دامبو . فالموقف يتلقى تسهلاً هيكلياً . ففي الغضب كما في جميع الانفعالات بلا ريب « ضعف في الحواجز التي تفصل طبقات الأنا العميقة والسطحية ، والتي تؤمن عادة الإمساك بزمام الحوادث عن طريق الشخصية العميقة والسيطرة على الذات ، وهو ضعف الحواجز بين الواقعي وغير الواقعي . وبالعكس، حين يكون العمل مجهداً فإن التوتر بين الخارج والداخل يستمر في الازدياد » بحيث تمتد الطبيعة السلبية على نسق واحد الى جميع الأشياء الموجودة في الميدان « تلك الأشياء التي تضيع قيمتها الخاصة ... وحين يضيع اتجاه الهدف ذي الامتياز ، عندها يتهدم الهيكل المميز الذي فرضته المسألة على الميدان ... والافعال الخاصة لا سيما ردود الفعل الفيزيولوجية المختلفة التي استمتعنا بوصفها بحيث أوكلنا إليها دلالة خاصة ، تلك الأفعال لا يمكن أن نفقها إلا انطلاقاً من هذا المفهوم الاجمالي لتجريد الانفعال ... »

ها نحن نصل إذاً في ختام هذا الاستشهاد الطويل الى مفهوم حركي للغضب . وأكد أن الغضب ليس غريزة ، ولا عادة ولا حساباً عقلياً ، فهو حل مفاجيء لنزاع ما « وطريقة لحل العقدة المستعصية . وسنصادف بكل تأكيد تمييز جانبيه بين أنواع السلوك العليا وأنواع السلوك الدنيا أو

المشتقات . غير أن هذا التمييز يتخذ هنا كل معناه ،
اذ اتنا نحن الذين نضع أنفسنا في حالة وضعية كليا ، لأن
متطلباتنا على هذا المستوى تصبح أقل ، كما نكتفي آنسذ
بتكاليف أقل . فحين لا يكون باستطاعتنا في حالة التوتر
العالية ، أن نحلّ إحدى المضلات حلا دقيقاً مضبوطاً ،
نضغط على أنفسنا ، ونهبط ونحيل أنفسنا 'من' تكفيه
الحلول الغليظة القليلة الانطباق (كأن نمزق مثلاً الورقة التي
تحمل صيغة المسألة) . وهكذا يبدو الانفعال هنا بمثابة
تقص ، فالشخص الفاضل يشابه رجلاً ، عجز عن حلّ
الحيال التي تكبله ، فراح يتلوى في وثاقه في جميع الجهات .
والسلوك « الغضب » وهو أقل انطباقاً على المسألة من السلوك
الأعلى - غير الممكن - ذلك السلوك الذي يحلّ المسألة -
هذا السلوك « الغضب » هو مع ذلك منطبق تماماً على حاجة
حلّ التوتر وزعزعة كتلة الرصاص التي تروح على أكتافنا .
يصبح بإمكاننا منذ الآن أن نتفهم الامثلة التي كنا نردها
آنفاً : كالمجنونة التي جاءت تقابل جانيه ، تريد أن تعترف
له . غير أن المهمة عسيرة جداً . ها هي إذاً في عالم
ضيق مهدّد ينتظر منها عملاً دقيقاً لما يبعد هذا العمل في
نفس الوقت . وجانيه نفسه يدلّ « في موقفه » على أنه
يصني وينتظر . لكنه في نفس الوقت يدحض هذا الاعتراف
لإبائه وشخصيته . فمن الواجب الهرب من هذا التوتر الذي
لا يطاق ، والمريضة ليست قادرة على ذلك الا في مبالقتها

إنّما زادت ضيقاً واضطراباً وهي تحول انتباهها عن العمل
الذي يجب عمله ، لتلقّي هذا الانبياة على نفسها (« كم أنا
تعيّسة ») ، محاولة بمؤقنيتها ذاته جانبه من حكم إلى مؤاسر ،
بمثلة دور من يستحيل عليه الكلام ، ملطفة ضرورة الأفضاء
بهذه المعارضات أو تلك مستبدلة كلّ ذلك بضغط ثقيل لا
مفارقة فيه يحدّثه العالم تجاهها . عندما تظهر الدموع والنوبة
العصبية . كما يصبح من اليسير أن أفهم نوبة الغضب التي
تعتريني ، حين لا أعود أعرف الاحابة على هازيء . والغضب
هنا ليس له نفس الدور في مثال دامور . وجدير نقل النقاش
إلى صعيد آخر ، فأنا حين أعجز عن أن أكون ملج
النكتة ، أجعل نفسي مهيب الجانب مخفياً . أود أن أخيف .
كما ألتجأ في نفس الوقت إلى وسائل مشتقة لأقهر خصمي ،
كالشتائم والتهديد « التي توازي » الدعاية التي استطيع إيجادها ،
وأصبح بهذا التحوّل المفاجيء الذي فرضته على نفسي «
أقل اهتماماً لاختيار الوسائل .

غير أنه لا يمكننا أن نكتفي بالنقطة التي توصلنا إليها .
ونظرية السلوك - الانفعال هي قامة ، غير أننا نستطيع
ملاحظة النقص فيها حتى في صفاتها وكمالاتها . وفي كل الأمثلة
التي أوردناها « نرى أن دور الانفعال الحركي لا جدل فيه .
غير أن هذا الدور ليس مفهوماً لكونه كذلك . أعني أن
المرور من حالة البحث إلى حالة الغضب « بالنسبة لدامور
وعلماء النفس الشكليين » إنما نجد تفسيراً لها في انقسام شكل

وتكوين شكل آخر . وبوسعي أن أفهم انقصاص الشكل
« المسألة بلا حل » . ولكن كيف يمكنني أن أقبل بظهور
الشكل الآخر . يجب الاعتقاد بأن هذا الشكل انما هو البديل
الواضح للشكل الأول . وهو ليس موجوداً إلا بالنسبة
للأول . فهناك إذا نهج واحد هو تحويل الشكل . غير أنني
لا أستطيع أن أفهم هذا التحويل بدون أن أطرح موضوع
الوعي أولاً . فالوعي وحده ، بنشاطه الاستخلاصي ،
يستطيع أن يهدم الأشكال ثم يعيد بناءها بلا انقطاع .
وهو وحده يستطيع تقدير غائية الانفعال لا سيما وأنتا قد
رأينا أن وصف الغضب الذي أتى به غيوم نقلاً عن دامبو ،
ييدي لنا الغضب وكأنه يهدف لتحويل شكل العالم . فالأمر
يتعلق « بضعاف الحواجز بين الواقعي واللاواقعي » و « تهديم
الهيكل المميز الذي كانت المسألة تفرضه في الميدان » . وهذا
رائع ، ولكن حين يتعلق الأمر بإيجاد صلة بين العالم والأنا ،
لا نستطيع أن نكتفي بمعلم نفس الشكل . ومن الواجب
بديهاً اللجوء للوعي . ولكن الا يلجأ غيوم نفسه للوعي
في نهاية المطاف حين يقول إن الغاضب « يضعف الحواجز
التي تفصل بين طبقات الأنا العميقة والسطحية » ؟ وهكذا فإن
نظرية جيمس الفيزيولوجية قد قادتنا بتقصها الي نظرية أنواع
السلوك عند جانبيه ، تلك النظرية التي قادتنا بدورها لنظرية
الانفعال - الشكل المتحرك . التي بدورها قادتنا في النهاية
للوعي . من هنا كان علينا أن نبدأ ، وخلق بنا الآن
أن نكون الموضوع الحقيقي .

نظرية التحليل النفسي

Théorie Psychanalytique

لا نستطيع أن نفهم الانفعال ما لم نبحث عن دلالة له . وهذه الدلالة حركية بطبيعتها ، لذا نرى أنفسنا ملزمين بأن نتحدث عن غائية الانفعال . وهذه الغائية يمكن إدراكها بصورة ملموسة عن طريق امتحان ايجابي للسلوك الانفعالي . والأمر لا يتعلق قط بنظرية في الانفعال - الغريزة Emotion - instinct تكون أكثر أو أقل غموضاً وترتكز على أسس مسبقة أو مبدأ مسلم به . وإن مجرد اعتبار الأفعال يقودنا الى حدس تجريبي عن الدلالة الغائية للانفعال . وإذا حاولنا من جهة أخرى أن نثبت جوهر الانفعال كفعل تابع للبيولوجيا الداخلية في نطاق حدس تام ، نستطيع أن ندرك تلك الغائية وهي لاصقة بهيكله . وجميع علماء النفس ممن فكروا في نظرية جيمس الطرفية قد وعوا نوعاً ما هذه الدلالة الغائية ، فهي التي يضفي عليها جانبها مثلاً اسم « العنصر النفسي » وهي التي

يحاول علماء وظائف الأعضاء من أمثال كانون Cannon وشرنغتون أن يعيدوا إدخالها في وصف الأفعال الانفعالية بالإضافة لفرضيتهم عن الحساسية الدماغية ، وهي أيضاً التي نجدها لدى فالون أو لدى علماء سيكولوجيا الشكل مجدداً . وهذه الغائية تفترض تنظيمًا استخلاصياً لأنواع السلوك لا يمكن أن يكون سوى الوعي السكامن Inconscient عند المحللين النفسيين أو الوعي ؛ يصبح إذاً من اليسير إيجاد نظرية تحليلية عن الانفعال - الغائية . كما نستطيع بدون الكثير من الجهد أن ندل على الغضب ، أو الخوف بوسائل نلجأ إليها عن طريق نزعات لاواعية Inconscients في سبيل الاكتفاء الرمزي ، ولخلق حالة من التوتر لا تطاق . وهكذا نأخذ بعين الاعتبار ، طبيعة الانفعال الرئيسية ، فالانفعال متلقى ، وهو يفاجئ ، وينتشر حسب القوانين الخاصة وبدون أن تتمكن عفوئتنا الواعية من تعديل سيرها بطريقة ذات قيمة . وهذا التفكك في طبيعة الانفعال المنتظمة التي يصر إلى افاطة موضوعها المحرك بالعقل الطاحن وفي طبيعته الحتمية ، التي لا يمكن أن تكون كذلك إلا بالنسبة لوعي الشخص ، ان هذا التفكك يؤدي نوعاً ما على الصعيد السيكولوجي التجريبي ، نفس الخدمة التي يؤديها على الصعيد الميتافيزيقي ، التمييز الذي أتى به كانط بين الطبيعة التجريبية والطبيعة الجوهرية (١) Noumenal .

(١) يعتبر الفيلسوف كانط ان لنا من عالم الاشياء حوادثها Phénomène أما جواهرها Noumène فلا علاقة لنا بها .
المرجم

والواقع أن السيكولوجيا التحليلية كانت بكل تأكيد أوّل من شدّد على دلالة الافعال النفسية ، أي أنها هي الأولى التي أصرت على أن كل حالة واعية تصلح لغير ما هي عليه بحدّ ذاتها . فالسرقة الخرقاء التي يقدم عليها مثلاً الموسوس بالجنس Obsédé sexuel ليست مجرد « سرقة خرقاء » . فهي ترسلنا الى شيء غير ذاتها ، منذ اللحظة التي نعتبرها فيها مع المحللين النفسيين كحادث معاقبة الذات للذات . وهي تقودنا الى المركّب الأول الذي يريد المريض تبريره بمعاقبة نفسه . نرى أن نظرية الانفعال التحليلية ممكنة . أو . ليست موجودة حتى الآن ؟ هذه المرأة لها هاجس الغار ، يغمى عليها حين ترى رصيفاً من الغار . ويكتشف المحلل النفسي في طفولتها حادثاً جنسياً عسيراً مرتبطاً بحبّ الغار . ما يكون الانفعال اذاً ؟ حادث رفض ، حادث رقابة وليس رفضاً للغار نفسه ، بل رفض احياء الذكرى المرتبطة بالغار فالانفعال هنا بمثابة هروب أمام الايحاء الواجب عمله ، مثله مثل النوم الذي يكون أحياناً بمثابة هروب من قرار يجب اتخاذه . كما أن مرض بعض الفتيات بنظر ستيكل Steckel هو هروب من الزواج . وبالطبع ليس الانفعال على الدوام تملصاً . فبإمكاننا أن نرى عند المحللين النفسيين تفسيراً للغضب باعتباره اشباعاً رمزياً للميول الجنسية . ولا ندحض بالطبع أي تفسير من هذه التفسيرات . أن يكون الغضب دالاً على السادية Sadisme فهذا أمر لا شك فيه . وأن تكون الغيوبة أمام

الخوف السليبي دالة على الهرب وعلى البحث عن مأوى .
فهذا شيء أكيد وسنحاول أن نفسر سببه . وموضوع البحث
الآن « هو مبدأ التحليلات النفسية ذاته هذا المبدأ هو ما
بنيتنا أن نجاهيه الآن .

إنّ تفسير التحليل النفسي يفهم الحادث الواعي كتحقيق
رمزي لرغبة مكبوتة ، عن طريق المراقبة . ونشير الى ان
هذه الرغبة ليست بالنسبة للوعي « منوطة بتحقيقه الرمزي .
وهذه الرغبة لوجودها بالوعي وفي الوعي « هي فقط ما
قدّمت ذاتها من أجله : الانفعال ، الرغبة في النوم ، السرقة
هاجس الفار « الخ . أما اذا لم يكن الامر كذلك ، واذا
كان لدينا وعي ، ولو ضمني « لرغبتنا الحقيقية ، نصبح
سيئي النية ، والمحلل النفسي لا يعني هذا الامر . ينتج
عن ذلك أن دلالة سلوكنا الواعي هي خارجة كلياً عن
هذا الشعور نفسه ، او اذا شئنا ، يكون المدلول عنه منقطعاً
كلياً عن الدال « وسلوك الشخص هو بحدّ ذاته ما هو
(إذا عنيينا « بحدّ ذاته « ما هو لنفسه) ، غير أنه
من الممكن حلّ رموزه بوسائل خاصة ، كما يصار الى حل
رموز لغة موصوفة « وبكلمة إن الفعل الواعي هو بالنسبة
للمدلول عنه ، كنسبة الشيء الناتج عن حدث الى هذا الحدث
وكما هي على سبيل المثال بقايا النار المشتعلة في الجبل بالنسبة
للناس الذين أشعلوا هذه النار . فالوجود الانساني لا يحتويه
الرماد الباقي « بل هو مرتبط به بصلة السببية Causalité :

والصلة « خارجية » : وبقايا النار سلبية بالنسبة لهذه العلاقة السببية « تماماً ككل نتيجة بالنسبة لسببها . والوعي الذي لم يكتسب المعلومات الفنية اللازمة لا يستطيع ان يفهم تلك البقايا على انها بمثابة علامات . وان البقايا في نفس الوقت هي ما هي ، اي أنها موجودة لذاتها بعيداً عن اي تفسير دال : فهي قطع خشبية محترقة ، ليس إلا .

وهل بإمكاننا أن نقبل بأن يكون الفعل الوعي بمثابة الشيء بالنسبة لدلالته ، أي أنه يتلقاه من خارج كصفة خارجية - كما هي النار صفة خارجية بالنسبة للخشب « أن يكون قد أحرقه الرجال قصد التدفئة عليه ؟ ويبدو في البدء أن النتيجة الأولية لتفسير كهذا أن يصبح الوعي شيئاً بالنسبة للمدلول عنه ، وأن نقبل بأن الوعي يتخذ له دلالة بدون ان يعي الدلالة التي يتخذها . نجد هنا تناقضاً فاضحاً ، الا اذا اعتبرنا الوعي بمثابة شيء موجود من نوع الحجر أو الغطاء الجلدي . ولكن في مثل هذه الحال يجب الرجوع عن كوجيتو ديكارت ، Cogito Cartésien واعتبار الوعي كحادث ثانوي وسلي معاً . والوعي الذي يصنع نفسه ، ليس سوى ما به يظهر نفسه . فاذا كان الوعي يحمل دلالة ، يجب أن يحتوي عليها كهيكل واع . وهذا لا يعني أن تكون تلك الدلالة صريحة تماماً . وفي ذلك درجات كثيرة ممكنة للجمود والوضوح . وهذا يعني فقط انه لا يجب أن نسأل الوعي من خارج « كما لو أننا نسأل بقايا الموقد او المكان

الذي خيّمنا فيه ، بل علينا أن نبحث فيه من الداخل عن الدلالة .. فالوعي - إذا كان الكوجيتو ممكناً بالضرورة - هو نفسه الفعل والدلالة والمدلول عنه معاً .

وفي الحقيقة ان ما يجعل دحض التحليل النفسي عسيراً ، هو ان التحليل النفسي لا يعتبر الدلالة وكأنها متأنية بكاملها من خارج الوعي . والمحلل النفسي يعتبر دائماً وجود تجانس داخلي بين الفعل الواعي والرغبة التي يعبر عنها . لان الفعل الواعي يرمز للعقدة المعبر عنها . وهذه الطبيعة الرمزية ليست ، بالنسبة للمحلل النفسي ، خارجة عن الفعل الواعي نفسه : بل هي مكونة له . ونحن متفقون تماماً معه حول هذه النقطة ؛ ان الرمز مكون للوعي الرمزي ، وهذا لا يشكل أدنى شك بالنسبة لمن يؤمن بقيمة كوجيتو ديكارت . ولكن من الواجب ان نتفاهم ، حول ما اذا كان الرمز مكوناً للوعي ، وحرى بنا ان ندرك صلة تفهم لاصق بين تكوين الرمز والرمز نفسه . غير انه يجب أن يتفق على ان الوعي يكون نفسه رمزياً . في مثل هذه الحال ، لا يكون وراء الوعي شيء وتصبح العلاقة بين الرمز وصاحب الرمز وتكوين الرمز بمثابة صلة للوعي هيكلية داخلية . Intrastuctural ولكن اذا أضفنا ان الوعي مكون للرمز بناء للتأثير السبي التابع لفعل تجاوزي هو الرغبة المكبوتة ، لوقعنا من جديد في النظرية التي تجعل من علاقة المدلول عنه بالدال علاقة سببية . والتناقض العميق الذي

تقع فيه جميع مدارس التحليل النفسي هو إعدادها لصلة السببية وصلة التفهم بين الحوادث التي تدرسها . لأن هذين الطرازين من الصلة ليسا متطابقين . لذلك فان نظري التحليل النفسي يقيمون صلات تجاوزية سببية قاسية بين الأفعال المدروسة (فمغرز الدبابيس يدل دائماً في الحلم على ثديي المرأة ، ودخول القطار يدل على إتيان العمل الجنسي) ، في حين ان صاحب الخبرة يتأكد من نجاحاته لا سيما وهو يدرس افعال الوعي المتفهمة أي ببحثه المرن عن العلاقة في داخل الوعي بين تكوين الرمز والرمز ذاته .

ونحن من جهتنا لا ندحض نتائج التحليل النفسي حين تأتي حصيلة للتفهم . ونقتصر على إنكار أية قيمة ومعقولة لنظرية التحليل الملحقة في السببية النفسية . كما نؤكد انه لجأ المحلل النفسي للتفهم في تفسير الوعي ، اصبح من الأفضل الاعتراف بصراحة بأن كل ما يجري داخل الوعي لا يمكن ان يتلقى تفسيره إلا من الوعي نفسه ، ها نحن نعود إذا لنقطة انطلاقنا : ان نظرية الانفعال التي تؤكد الطبيعة الدالة للأفعال الانفعالية ، عليها أن تبحث عن الدلالة داخل الوعي نفسه . ويقول آخر بأن الوعي هو الذي يجعل من ذاته وعياً ، منفعلاً لحاجات ذات دلالة داخلية .

والحق يقال ان انصار التحليل النفسي يشيرون صعوبة مبدئية : إذا كان الوعي ينظم الانفعال وكأنه نمط إجابة منطبق على موقف خارجي ، فكيف يمكن لهذا الوعي ان

لا يكون وعياً لهذا الانطباق ؟ ويجب الاعتراف بأن نظرية التحليل النفسي تأخذ تماماً بعين الاعتبار هذه المفارقة بين الدلالة والوعي ، وليس هذا الامر مدعاة للدمشة لأن الوعي انما وجد من اجل ذلك بالضبط ، كما يقول المحللون النفسيون ، في اكثر الحالات ، اتنا نكافح بصفتنا عنوية واعية ضد انتشار التظاهرات الانفعالية : فنحن نحاول ان نسيطر على خوفنا ، وان نهدي غضبنا وان نضبط ، عنا . وهكذا فنحن لسنا نعني تلك الغائية في الانفعال كما وأتتا ندحض الانفعال بكل قوانا ، لأن حال يغزونا بالرغم منا . وان الوصف الفينومينولوجي للانفعال هو الذي يجب ان يرفع عنا هذا التناقض .

تخطيط نظريّة فينومينولوجيّة (ظاهراتيّة)

إن ما يمكن أن يساعدنا في بحثنا ، هي ملاحظة تمهيدية قد تكون بمثابة انتقاد عام لجميع نظريات الانفعال التي صادفناها (ما عدا نظرية دامبو) : تجري الأشياء بالنسبة لغالبية علماء النفس وكأن وعي الانفعال كان في البدء وعياً انعكاسياً ، أي كما لو أن شكل الانفعال الأولي باعتباره فعلاً واعياً ، قد بدا لنا بمثابة تعديل لحالتنا النفسية ، أو أن نعتبره - كي نلجأ الى اللغة الشائعة - كحالة واعية . ومن الممكن دائماً بكل تأكيد أن نعي الانفعال وكأنه هيكل عاطفي للوعي ، كأن نقول : أنا غاضب ، أنا خائف ، الخ . بيد أن الخوف ليس في الأصل وعياً للشعور بالخوف ، كما وأن ادراك هذا الكتاب ليس وعياً لإدراك الكتاب . فالوعي الانفعالي هو في البدء غير مفكّر به ، وعلى هذا الصعيد ، لا يمكن أن يكون هذا الوعي الانفعالي واعياً لذاته إلا تبعاً للنمط اللاوعي . والوعي الانفعالي هو في البدء وعي للعالم . وليس من الواجب استحضار نظرية الوعي بكلّيتها ، لكي

تفهم هذا المبدأ بوضوح . ويمكن لبعض الملاحظات البسيطة ان تكون كافية لذلك ، ومن الملاحظ أن دارسي الانفعال لم يفكروا قط بتلك الملاحظات . وبديهي ، في الواقع ، ان الانسان الخائف ، انما هو خائف من شيء حتى ولو كان الامر يتعلق بذلك القلق غير المحدود الذي نشعر به في الظلام او في ممر متجههم او في صحراء الخ . فنحن انما نخاف من بعض اشكال الليل ، من بعض اشكال العالم . وقد أشار جميع علماء النفس ، بلا ريب ، إلى أن إدراكاً حسيّاً ما Perception هو سبب الانفعال وهذا الإدراك الحسي هو تمثّل دال Representation Signal لكنه يبدو لهم ، أن الانفعال يبتعد عن موضوعه ليقتصر على نفسه ، ولا يلزم الكثير من التفكير لفهم ، بالعكس ، أن الانفعال يعود في كلّ لحظة الى موضوعه بل يفتني منه ، فهم يصفون الهرب مثلاً ، أثناء الخوف ، وكأنه ليس قبل كل شيء هرباً من أمام شيء ما ، وكأن الشيء الذي نهرب منه لا يبقى دائماً متمثلاً في الهرب ذاته ، وكأن هذا الشيء موضوعه وسبب وجوده ، هذا الشيء الذي نهرب من أمامه . كيف نتكلم عن الغضب حيث يحصل الضرب والإهانة والتهديد دون أن نذكر الشخص الذي يمثّل الوحدة الغرضية لتلك الشتائم والتهديدات والضربات ؟ وبكلمة إن الشخص المتفعل والشيء سبب الانفعال قد اجتماعاً في خليص لا ينقسم ، والانفعال نوع من خشية العالم . وهذا ما لاحظته دامبو وحده ، بدون

أن يعطي السبب . إن الشخص الذي يبحث عن حلّ
لمسألة عملية هو خارج العالم وفي داخله معاً وهو يدرك العالم في كل
لحظة ، من خلال جميع تصرّفاته . فإذا ما فشل في تجاربه
إذا ما أثير « فإثارتة نفسها هي أيضاً نوع من ظهور العالم
له . وليس لازماً على الشخص أن يعود الى ذاته ، أن
يعطف وعياً انعكاسياً ، فيما بين الفعل الفاشل والغضب .
ويمكن وجود ممرّ متواصل من الوعي غير المفكّر فيه « أي
العالم المفعول » Monde-agi (الفعل) الى الوعي غير المفكّر
فيه « العالم البغيض » (الغضب) . والوعي الثاني هو
تحوّل للوعي الأوّل .

ولكي نحسن فهم معنى ما سيرد ، من الضروري أن
يستحضر القارئ جوهر السلوك غير المفكر فيه
Conduite Irréfléchie . هناك ميل الى الظن أن الفعل Action
هو مرور ثابت من غير المفكر فيه Irréfléchi الى الانعكاسي
Réflexif من العالم اليّنا نحن . نفهم الموضوع (وهو وعي
للعالم غير مفكر فيه) ثم ندرك أنفسنا وأمامنا موضوع
يجب حله (انعكاس) ، وانطلاقاً من هذا الانعكاس نتبنّى
فعلاً « بحيث أنه يجب أن نتمسك به نحن (انعكاس) ثم
ننزل بعد ذلك في العالم لتنفيذ الفعل (غير المفكر فيه)
بدون أن نأخذ بعين الاعتبار سوى الغرض المفعول . ثم إن
جميع الصعوبات الجديدة ، وجميع أنواع الفشل الجزئية التي
تحتاج الى تضيق الانطباق تبعث بنا الى الصعيد المفكر فيه

Réfléchi . من هنا ينشأ رواح ورجوع ثابتان من شأنها
أن يكونا الفعل .

لكنه من الأكيد أننا نستطيع التفكير بفعلنا . غير أن
عملية ما تجاه الكون تنتقد في غالب الأحيان بدون أن
يفادر الشخص الصعيد غير المفكر فيه . فأنا في هذه اللحظة
مثلاً ، اكتب ولكن لست أعني أنني أكتب . يقال إن
العادة هي التي جعلتني لا أعني الحركات التي تقوم بها يدي
وأنا أرسم الحروف . وهذا مستحيل ؛ قد تكون لدي عادة
الكتابة ، ولكن ليس عادة كتابة هذه الكلمات تبعاً لهذا
الترتيب . ويجب الحذر بصورة عامة من اللجوء للعادة في
الشروح . وفي الواقع أن فعل الكتابة ليس قط لا واعياً ،
بل هو هيكلي حالي لوعيي ، إلا أنه ليس واعياً لذاته ،
والكتابة تعني وعياً فعالاً للكلمات من حيث أنها تنشأ تحت
ريشتي ، ليس كلمات من حيث أنني أنا الذي كتبتها :
فأنا أدرك الكلمات حديثاً من حيث أن لها تلك
الميزة الهيكلية في أن تتأتى من لا شيء Ex nihilo
وبدون أن تكون خالقة لذاتها في نفس الوقت ، أي أن
تكون مخلوقة بطريقة سلبية ، ففي نفس اللحظة التي أرسم
فيها كلمة ما ، لا انتبه لانحناءات الحروف التي أرسمها كلا
على حدة : فأنا في حالة انتظار خاصة ، حالة انتظار
خلاق ، أنتظر أن تستعير الكلمة — التي أعرفها مسبقاً —
اليد التي تكتب والانحناءات التي ترسمها لكي تحقق ذاتها .

وأنا بكل تأكيد لا أعني الكلمات بنفس الطريقة التي أقرأ فيها ما يكتب شخص من الأشخاص وأنا اتطلع من فوق كتفه . غير ان هذا لا يعني أنني أعني نفسي وأنا اكتب . والاختلافات الأساسية هي التالية : إن الإدراك الحدسي لما يكتبه جاري هو من طراز « البداهة المحتملة » « Evidence Probable » ، وأفهم الكلمات التي تخطها يده قبل أن يكون قد خطها كاملة . ولكن في اللحظة التي أقرأ فيها « مد » ... ، أفهم كلمة « مستقل » حدسياً ، وكلمة « مستقل » تتمثل كواقع محتمل (على غرار الطاولة أو الكرسي) . أما إدراكي الحدسي للكلمات التي اكتبها ، فإنه يفضي إلي بها على أنها أكيدة . والأمر يتعدى بنوع من اليقين خاص تقريباً : فليس أكيداً أن كلمة « يقين » التي اكتبها ستظهر (إذ يمكن أن يحصل لي انزعاج ، أن أغير الفكرة الخ ..) ولكنه أكيد أنها اذا ظهرت ، فستظهر كما هي عليه . ومكذ فإن الفعل يكون طبقة من الأشياء الأكيدة في عالم محتمل ، ولنقل اذا شئنا انها اشياء محتملة من حيث أنها كائنات مستقبلية واقعية ، وأكيدة من حيث أنها ممكنات في العالم Potentialités . فضلاً عن أن الكلمات التي يكتبها جاري لا تتطلب شيئاً ، فأنا أنظر إليها في نطاق تسلسل ظهورها . كما لو أنني انظر الى طاولة أو مشجب . أما الكلمات التي اكتبها فهي بالعكس لزوميات Exigences . فالطريقة عينها التي أدركها بها من خلال نشاطي الخلاق هي التي تكونها كما هي عليه : إذ تبدو وكأنها ممكنات من الواجب تحقيقها . ولكن ليس من

الواجب أن تتحقق بواسطتي أنا . فالأنا لا تظهر قط هنا . بل أحس فقط بالانجذاب الذي تحدثه الكلمات . وأشعر موضوعياً بلزومياتها « وأراها تتحقق وتطلب في نفس الوقت أن تتحقق أكثر ، كما وبإمكاني أن أفكر بالكلمات التي يخطها جاري كملزمة إياه بتحقيقها « ولكني لا أشعر بهذا الإلزام . أما إلزام الكلمات التي أخطها بنفسني فهو ، بالعكس ، حاضر مباشرة كما أنه وازن ومحسوس . فالكلمات تجرّ يدي وتقودها . ولكن ليس على طريقة صفار الشياطين الحية النشيطة التي تدفعها وتسحبها في الواقع ، لأن إلزامها سلمي . أما بالنسبة ليدي أنا فاني أعياها ، بمعنى أنني أشهدا مباشرة كالآلة التي بها تتحقق الكلمات . فهي غرض في العالم ولكن هذا الغرض حاضر ، كما اني عشته في نفس الوقت . ها أنا الآن أتردد : أكتب كلمة « إذا » ، ام كلمة « بالنتيجة » وهذا لا يفترض قط عوداً الى نفسي . سوى أن الممكنات « إذا » و « بالنتيجة » تظهر - وكأنها ممكنات تدخل في نزاع . وسنحاول في مكان آخر أن نصف بتوسع العالم المفعول . والمهم هنا فقط ، أن نبين أن الفعل ، لكونه وعياً عفويّاً غير مفكر فيه ، يكون نوعاً من الطبقة الوجودية في العالم ، وأنه ليس من الضروري أن يعي المرء ذاته فاعلاً ليفعل - بل بالعكس - وبكلمة ، إن السلوك غير المفكر فيه ليس سلوكاً لاوعياً، بل هو سلوك واعٍ لنفسه بصورة غير معلومة وكيفية وعيه لذاته بصورة معلومة هو أن يتجاوز نفسه وأن يدرك في العالم كصفة للأشياء . هكذا نستطيع أن نفهم جميع

لزوميات العالم الذي يحيط بنا وتوتراته أيضاً ، وهكذا
نرسم خريطة لهذا العالم المحيط بنا Umwelt ، خريطة تتغير
بتغير أفعالنا وحاجاتنا . غير أن الأشياء « الواجب تحقيقها »
في الفعل العادي المنطبق ، تبدو وكأن عليها أن تتحقق
عن طريق بعض السبل . والوسائل ذاتها تبدو كممكنات
تطالب بالوجود . وتفهم الوسيلة هذه ، كسبيل وحيد ممكن
للوصول الى الهدف (او اذا كان هناك عدة سبل ، تكون
هذه السبل العدة ممكنة وحدها ، الخ .) نستطيع أن
نسميه الحدس المعتمد على الوقائع الحتمية المعالم . ومن هذه
الجهة إن العالم الذي يحيط بنا - وهذا ما يسميه الألمان
أم فيلت Umwelt - عالم رغائبنا وحاجاتنا وأفعالنا ، يبدو
وكان طرقاً ضيقة وعرة تخططه ، طرقاً تقود الى هذا
الهدف المحدد أو ذاك ، أي الى ظهور غرض مخلوق . وكل
من هذه الطرق وتلك مخوفة بالطبع ، بالشباك والأشراك .
نستطيع أن نقارن هذا العالم بالصحن المتحركة في آلات
النقود حيث تدحرج الكرات الصغيرة . فهناك طرق يخططها
سياج من الدبابيس توجد فيها ثقوب عند مفترقها . إن في هذا
العالم صعوبة .. ومبدأ الصعوبة هذا ليس مبدأ انعكاسياً
يفترض علاقة بي أنا . فالمبدأ هو هنا ، في العالم ، وهو
صفة في العالم تتمثل في الإدراك (تماماً كما هي الطرق نحو
الممكنات » وهذه الممكنات ذاتها ، ولزوميات الأشياء ، الخ !
كالكتب الواجب قراءتها ، والأحذية الواجب تصليحها الخ)

هذا هو المقابل الظاهر لنشاطنا الذي باشرناه أو أخذنا به فقط .

والان نستطيع أن نفهم ما هو الاتفعال . فهو تحويل للعالم . فحين تصبح الطرق المخططة شديدة الصعوبة ، أو حين لا نرى أيّ طريق ، لا نستطيع عند ذلك أن نبقي في عالم ملجأ وصعب الى هذا الحد . وإذا كانت جميع الطرق مسدودة ، من الواجب أن نفعل شيئاً ما رغم ذلك . عندئذ نحاول أن نغيّر العالم ، أن نعيش كما لو كانت علاقات الأشياء بمكاناتها ، غير منظمة بواسطة مناهج حتمية ، بل هي منظمة عن طريق السّحر . ولندرك تماماً بأن القضية ليست لعباً ، فنحن نتلقى ضغطاً ، كما ونحن نرتقي في هذا الوضع الجديد بكل القوة التي تتمتع بها . ولندرك أيضاً أن هذه المحاولة ليست كذلك بما هي عليه ، لأنها تصبح آنئذ غرضاً للتفكير . فهي قبل كل شيء إدراك العلاقات الجديدة واللّزوميات الجديدة . غير أن إدراك الغرض يكون مستحيلاً أو منطوياً على توتر لا يحتمل ، فيدرك الوعي أو يحاول أن يدركه بصورة مختلفة ، أي أن هذا الوعي يتحوّل بالضبط بغية تحويل الغرض نفسه . وهذا التغيّر في اتجاه الوعي ليس فيه أية غرابة . ونجد ألف مثال على تحويلات كهذه في النشاط وفي الإدراك الحسي . فالبحت مثلاً عن وجهه ممّوه في صورة - أحجية - أين البندقية ، يقودنا إدراكياً أمام الصورة بشكل جديد ، وهو كيفية تصرفنا

تجاه أغصان الأشجار ، والأوتاد التلغرافية والرسم كما لو كنا أمام بندقية . وهو تحقيق حركات العينين كما لو كنا أمام بندقية . غير أننا لا ندرك هذه الحركات بحد ذاتها . فمن خلال هذه الحركات تتجه نحو الأشجار والأوتاد التي ندركها كبنندقية محتملة ، نية تتجاوز هذه الأشجار والأوتاد ، إلى أن يتحجّر الإدراك الحسي فجأة فتظهر البندقية . وهكذا فإننا نفقه غرضاً جديداً ، أو غرضاً قديماً بشكل جديد ، من خلال تغير النية ، كما لو كان ثمة تغيير في السلوك . فلا حاجة لنا أن نضع أنفسنا في البدء على الصعيد الانعكاسي . وأسطورة الصورة الصغيرة هي بمثابة التعلّل Motivation مباشرة . ونحن نبحث عن البندقية دون أن نغادر الصعيد غير المفكر فيه . أي أن بندقية ممكنة الظهور تظهر - وكانت قد اتخذت مكانها في الصورة بطريقة غامضة . وعلينا أن نفهم التغيير في النية والسلوك ، ذلك التغيير الذي يميز الانفعال على النمط ذاته . واستحالة إيجاد حلّ للمسألة ، كما فهمت موضوعياً على أنها صفة للعالم هي بمثابة تعلّل للوعي الجديد غير المفكر فيه ، ذلك الوعي الذي يدرك العالم الآن بصورة مختلفة وبهيئة جديدة كما يواجه سلوكاً جديداً - تدرك هذه الهيئة من خلاله - كما يكون بمثابة هيئة للنية الجديدة . إلا أن السلوك الانفعالي ليس على صعيد أنواع السلوك الأخرى ذاته ، فهو ليس جدياً Effectif إذ ليس في نيته أن يؤثر فعلاً على الغرض بحد ذاته عن طريق مداخلة الوسائل الخاصة . والسلوك

يرمي إلى أن يضيفي - على الغرض بنفسه وبدون أن يبدله في هيكله الواقعي - صفة أخرى « ووجوداً أقل » أو حضوراً أقل . (أو وجوداً أكبر « الخ) . وبكلمة ، فالجسم هو الذي يغيّر ، في الانفعال ، علاقاته بالعالم لكي يغيّر هذا العالم صفاته ، أجل إنه الجسم الذي يوجهه الوعي . وإذا كان الانفعال نوعاً من اللهو ، فإنه لهو نؤمن به . وإن مثلاً بسيطاً سيشرح لنا الهيكل الانفعالي « أنا أمدّ يدي لأقطف عنقوداً من العنب » فلا أستطيع أن أمسكه ، فالعنقود لا تطوله يدي . وأرفع كتفيّ ، ثم أرخي يدي « وأتمم » لا تزال الحبات حصرماً ، وأبتعد عنها . إن جميع تلك الحركات والأقوال ، وذاك السلوك ، لا تدرك قط بحدّ ذاتها . إنها مسرحية صغيرة أمثلها تحت العنقود لأضفي من خلالها على العنب هذه الصبغة « أي أن اعتبره حصرماً » تلك الصبغة التي هي بمثابة بديل للسلوك الذي عجزت عن اتيانه . فقد تمثلت حبات العنب في البدء وكأنها « يجب أن تقطف » غير أن هذه الصفة الملحة ما لبثت أن أصبحت لا تطاق ، لأن إمكانية تنفيذها لا يمكن أن تتحقق . وهذا التوتر الذي لا يطاق أصبح بدوره مبرّراً لنعرف في العنب صفة جديدة أي « عدم النضوج » وهذه الصفة تفضّ النزاع وتقضي على التوتر . إلا أن هذه الصفة لا أستطيع أن أضفيها كيميائياً على العنب « وأنا لا أستطيع أن أوثر على العنقود بالطرق العادية . عندها أدرك خوضه العنب غير الناضج من خلال سلوك القرف . وبطريقة

سحرية ، أضفي على العنب الصفة التي أرغب فيها . وليست هذه المسرحية هنا إلاّ شبه مغلصة . ولكن أن يكون الموقف شديد الإلحاح ، وأن يكون السلوك السحريّ قد تمّ بحديّة : ذلك هو الانفعال .

ولنأخذ على سبيل المثال الخوف السلي . أرى وحشاً مفترساً يقترب مني ، تخور قدماي من تحتي ، وتضعف نبضات قلبي ، ويكتنفي الشحوب ، وأقع مغشياً علي . لا شيء يبدو عديم الانطباق أكثر من هذا السلوك الذي يرميني في التهلكة بلا مقاومة . لكنه مع ذلك سلوك التملص . فالإغماء هنا هو ملجأ . ولكن لا يُظن أن هذا الملجأ من أجل نفسي ، وأني أحاول أن أنقذ نفسي ، أن لا أعود فأرى الوحش المفترس . أنا لم أخرج من الصعيد غير المفكر فيه ، لكني - لعجزي عن درء الخطر بالطرق العادية والتسلسل الحتمي ، فقد أنكرت هذا الخطر . شئت أن أجعله منعماً . إن إلحاح الخطر كان بمثابة مبرر لنية العدم التي أمرت بالسلوك السحري . وبهذا الفعل ، جعلته منعماً بقدر ما كان في وسعي . هنا كانت حدود فعلي السحري على العالم . استطيع أن أحذفه كغرض للوعي ولكني لا أقدر على ذلك إلا وأنا أحذف الوعي^(١) ذاته ولا يُظن قط أن السلوك الفيزيولوجي للخوف السلي هو اضطراب صرف . بل هو يمثل تحقيق

(١) أو على الأقل وأنا أعدل هذا الوعي : والاعفاء انتقال الى وعي حالم . أي غير محقق .
المؤلف

حالات جسدية مفاجئة من شأنها أن ترافق عادة الانتقال من اليقظة الى النوم .

والهرب في الخوف الايجابي قد اعتبر خطأ كسلوك عقلي .
اذ نرى فيه حساب من يريد أن يضع بينه وبين الخطر أكبر مسافة ممكنة . لكن هذا فهم سيء للسلوك الذي ما هو آتئذ سوى نوع من الحذر . فنحن لا نهرب كي نصبح في مأمن ، بل نهرب لأننا لا نستطيع أن نتقدم عن طريق الإغماء . والهرب هو إغماء لاه ، وهو سلوك سحري يقضي بانكار الشيء الخطر بجسمنا كله ، اذ نقلب هيكل اتجاه المكان الذي نعيش فيه ، ونحن نخلق فجأة اتجاهاً ممكن الحدوث ، من الجهة الثانية . فهو طريقة نسيان الخطر ، طريقة لإنكاره وبمثل تلك الطريقة يلقي الملاكون الجدد بأنفسهم على الخصم وعيونهم مغمضة ، فهم يريدون أن يحذفوا وجود قبضتيه ، وهم يأبون أن يدركوها وبذلك يحذفون فعاليتها ، رمزياً . وهكذا فإن المعنى الحقيقي للخوف يبدو لنا : كوعي يهدف الى الانكار .
من خلال سلوك سحري ، انكار شيء خارجي في العالم ، يذهب الى حدث انعدام نفسه ، ليجعل الشيء منعدماً معه .
يتميز الحزن السليبي ، كما نعلم ، بسلوك مرهق ، فهناك انحلال في العضلات ، وشحوب ، وبرودة في الأطراف . يتطلع الحزين الى أحد الأركان حيث يجلس ، جامداً ، مقدماً للعالم أقل مساحة ممكنة ، يفضل شبه الظل على الأشعة الوضائة ، والسكوت على الحركة . ويفضل عزلة الغرفة على

جمهور الأماكن العامة أو الشوارع . « لكي يبقى » كما يقال وحده مع الألم . . وليس هذا صحيحاً قط . فالواقع انه من القوة أن يبدو المرء وهو يفكر في كآبته بعمق . فالحالات التي ندلل فيها على ألمنا قليلة جداً ، والسبب مختلف تماماً . فقد اختفت إحدى الحالات العادية في أفعالنا ، والعالم يلزمنا أن نفعل فيه وعليه بدون تلك الحالة . ومعظم الممكنات التي تقطن فيه (الأعمال الواجب القيام بها ، والأشخاص الذين يجب مقابلتهم ؛ وأفعال الحياة اليومية التي يجب تنفيذها) تبقى كما هي عليه ، غير أن الوسائل لتحقيقها . الوسائل التي تخطط « العالم المحيط بنا » هي التي تغيرت . فإذا علمت مثلاً بخسارتي ، فلا أعود أمتلك الوسائل ذاتها كي أنفذها . بل يجب أن أستبدلها بوسائل جديدة (فإذا كنت قد خسرت سيارتي أستبدلها بركب الأوتوبيس) وهذا بالضبط ما لا أريده قط ، والحزن يهدف الى حذف وجوب البحث عن طرق جديدة ، وتحويل هيكل العالم بتبديل حالة العالم الحاضرة بهيكل لا تميز فيه . فالأمر يقضي إذاً يجعل العالم حقيقة محايدة على الصعيد العاطفي ، وبخلق نظام من التوازن العاطفي الكلي ، وبتخفيف شحنة الأشياء ذات الشحنة القوية عاطفياً ، وبإيصالها جميعاً الى الصفر العاطفي ، ومن هنا نفهمها وكأنها معادلة تماماً وقابلة للتبديل . ويقول آخر ، لأننا لم نستطع ولم نشأ تنفيذ الأفعال التي كنا نخطط لها . نتصرف وكأن الكون لا يتطلب شيئاً منا ، لهذا لا نستطيع إلا

أن تؤثر على ذواتنا ، و « أن نسهر على أنفسنا »
والمقابل الظاهر لهذا الموقف هو ما سنسميه الحزن Morne :
فالعالم حزين أي انه ذو هيكل لا مفارقة فيه غير اننا نتخذ
في نفس الوقت بالطبع وضع الانطواء ، « وننزوي » والمقابل
الظاهر لهذا الموقف هو الملجأ Refuge . فالكون بأكمله حزين
ولكن لأننا نريد ان نقى أنفسنا من كآبته الخيفة غير
المحدودة ، لنجعل لنا مكاناً معيناً في « الزاوية » والتميز
الوحيد في كآبة العالم الكلية هذه : التزام الجدار ، قليل
من الظلمة يبدد لنا كآبة العالم الفسيحة .

والحزن الفعال يمكن ان يتخذ اشكالا كثيرة . ولكن الحزن
الذي يتحدث عنه جانيه (المجنونة التي تعثرها نوبة عصبية
لأنها لا تريد ان تؤدي اعترافها) يمكن ان يعتبر بمثابة
رفض Refus . فالأمر هناك يتعلق بسلوك سلمي يهدف لإنكار
الإلحاح في بعض المواضع وإبدالها بمواضع أخرى . فالمريضة
تريد أن تؤثر في جانيه ، وهذا يدل على أنها تريد ان
تستبدل موقف الانتظار العديم الإحساس الذي تتخذه بموقف
استعجال مؤثر . إنها تريد هذا الموقف وتستعمل جسمها لهذه
الغاية . وفي نفس الوقت « إذ تضع نفسها في حال يكون
الاعتراف فيه مستحيلا ، فهي تبعد الفعل الواجب عمله الى
خارج مجالها . والآن ، ان كل امكانية للكلام قد انتزعت
منها ، لأن الدموع والشهقات تهزها ، والممكن هنا إذا لم
يحذف « فلا يزال الاعتراف واجب « الاقدام عليه » ،

لكن هذا الاعتراف قد تراجع الى خارج مجال المريضة ،
فهي لا تستطيع ان تريد فعله ، بل إنها تأمل أن تقدم
عليها ذات يوم فقط . وهكذا فإن المريضة قد تخلصت من
الشعور المضني حيث ان الفعل كان في طاقتها ، وكانت حرة
في الاقدام عليه أو تركه وشأنه ، والنوبة الانفعالية هنا
هي تخلص عن المسؤولية ، فهناك مبالغة سحرية لصعوبات العالم .
والعالم يحافظ إذاً على هيكله المفارق لكنه يبدو غير عادل
ومعادياً ، لأنه « يتطلب » كثيراً منا ، أي أكثر مما
بالإمكان ان نعطيه إنسانياً ، وانفعال الحزن الفعول في هذه
الحالة هو مسرحية للعجز ، والمريضة تشابه أولئك
الخدم ، الذين بعد إدخالهم اللصوص الى بيوت معلمهم ،
يقدم هؤلاء على إيثاقهم ، كما يقال إنهم يستطيعون
منع السرقة . غير أن المريض هنا يوثق نفسه بألف
وثاق . قد يقال ان هذا الشعور المضني بالحرية الذي شاء
المريض أن يتخلص منه ذو طبيعة انعكاسية ونحن لا نؤمن
بشيء من ذلك بل يكفي أن نراقب أنفسنا لنأخذ علماً
بذلك ، فهو الفرض الذي يبدي نفسه واجب الخلق
بحرية ، وهو الاعتراف الذي يبدي نفسه واجب الإتيان
به وممكناً معاً . وهناك بالطبع وظائف وأشكال أخرى
للحزن الفعال . ولن نشدد على الغضب الذي تكللنا عنه
باسهاب ، والذي دوره الحركي أكثر بداهة ، من بسبب جميع
الانفعالات . ولكن ما يقال عن السرور ؟ فهل هو جزء من
الوصف الذي أتينا به . يبدو للوهلة الأولى أنه ليس كذلك

لأن الشخص المسرور لا يتوجب عليه الدفاع عن نفسه أمام
تبدل من شأنه أن ينقصه ، أو أمام أحد الأخطار . ولكن
من الواجب في البدء أن نميز بين السرور - الشعور
Joie - Sentiment الذي يمثل نوعاً من التوازن ، وبين السرور -
الانفعال Joie - émotion . لأن هذا الأخير ، إذا ما دققنا
فيه ، يتميز بنوع من عدم الصبر : ولنفهم بذلك
أن الشخص المسرور يتصرف تماماً وكأنه انسان في حالة عدم
الصبر : فهو لا يثبت في مكانه ويعدّ ألف مشروع ، ويخطط
انواعاً للسلوك لا يلبث أن يتخلى عنها ، الخ . وذاك لأن
سروره في الواقع قد أثر بسبب ظهور غرض رغبته . ويأتي
من يعلن له بأنه ربح مبلغاً مهماً ، أو أنه سيلقي شخصاً
يحبه أو شخصاً لم يره منذ زمان بعيد . ولكن بالرغم من
أن هذا الغرض مهماً الوجود ، Imminent بين ساعة وأخرى
فهو ليس بعد حاضراً ، كما أنه ليس له حتى الآن . فهناك
نوع من المدة تفصله عن الغرض . وحتى لو كان هنا ، حتى
ولو ظهر الصديق المرغوب فيه على رصيف المحطة ، فهو رغم
ذلك غرض لا يسلم نفسه إلا قليلاً بقليل ، وسرعان ما
يكلّ السرور الذي اعترانا لرؤيته : ، فليس بإمكاننا أبداً
أن نثبت هنا ، على مرأى منا ، وكأنه إحدى ممتلكاتنا
المطلقة ، أو أن نتناوله مرة واحدة ككل (كما وأنه ليس
بإمكاننا أبداً أن نحقق ثروتنا بمرة واحدة ، وكأنها كل
سريع الانقضاء . بل إنها تقدم نفسها عبر ألف تفصيل

مختلف . والسرور سلوك سحري يرمي بالرقية الى تحقيق امتلاك الغرض المرغوب ، ككلّ سريع الانقضاء يصحب هذا السلوك نوع من اليقين بأن الملكية ستحقق إن آجلاً أو عاجلاً ولكن هذا السلوك يرمي الى تعجيل تلك الملكية . ونشاطات السرور المختلفة كاتفراج العضلات ، والتوسع الضئيل في الشرايين تحرّكها وتتجاوزها نيّة تهدف من خلالها العالم . والعالم يبدو سهلاً ، وغرض أمانينا يبدو قريباً يسير الامتلاك . وكل حركة هي موافقة اكثر تطرفاً . فالرقص والغناء من السرور تمثل أنواعاً من السلوك رمزية تقريبية ، أنواعاً من الرقية . يكون الغرض من خلالها - ذلك الغرض الذي ليس بإمكاننا في الواقع أن نمتلكه إلا عن طريق السلوك الحذر والعسير معاً - قد أصبح ممتلكاً وبصورة رمزية . ذلك مثلاً شعور رجل تأتبه امرأة وتقول له إنها تحبه فيبدأ بالغناء والرقص ويفعله هذا انما يتحول عن السلوك الذي يجب ان يتبعه كي يستحق تلك المحبة ويساعد في نموّها ، كي يتحقق ملكيتها على مهل ومن خلال ألف تفصيل دقيق (كاللبسات ، والاهتمام الخ) . حتى انه يتحوّل عن المرأة ، كواقع حيّ . المرأة التي تمثل بالضبط محور جميع انواع السلوك الدقيقة فهو يعطي لنفسه مهلة : قريباً سيلتزم أنواع السلوك تلك . أما الآن فإنه يمتلك الغرض سحرياً ، والرقص يصور له هذا الامتلاك .

على اننا سوف لن نكتفى بتلك الملاحظات . فقد

سمحت لنا بتقدير الدور الحركي للانفعال ، غير أننا لا نعرف الشيء الكثير عن طبيعته حتى الآن .

ومن الواجب علينا أن نشير الى أن الامثلة التي ذكرناها أبعد من أن تشتمل على تنوع الانفعالات . فهناك كثير من انواع الخوف وكثير من أنواع الحزن الأخرى . ونؤكد فقط بأن جميع الانفعالات تعود لتكوين عالم سحري باستعمالها جسدياً كوسيلة للرقية . والمسألة تختلف من حال الى حال ، وكذلك أنواع السلوك . ولكي ندرك دلالتها وغايتها ، من الواجب أن نعرف كل موقف خاص ونحلله . وليس هناك بصورة عامة أربعة نماذج للانفعال . فهناك أكثر من ذلك بكثير ، ومسألة ترتيب الانفعالات عمل مفيد خصب فإذا كان خوف التحول مثلاً يتبدل الى غضب على حين غرة ، (تبدل السلوك الذي يعمله تبدل الموقف) فإن هذا الغضب ليس من النوع السخيف ، بل هو خوف متجاوز . وهذا لا يعني أن الغضب ممكن التحويل الى الخوف نوعاً ما ، بل انه يثبت الخوف السابق ثم يدخله في هيكله الخاص . غير أننا حين نتأكد من هيكل الانفعال الحركي فقط ، عندها فقط نتوصل الى تفهم انواع الوعي الانفعالي ، تلك الانواع التي لا حد لها . ومن المناسب ، من ناحية أخرى ، أن نشدد على واقع رئيسي : أن أنواع السلوك الصرفة البسيطة ليست الانفعال كله ، كما وأنها ليست مجرد وعي انواع السلوك تلك . فلو كان الأمر كذلك لبدت غائية السلوك أكثر وضوحاً ولأصبح من اليسير

أن يتحرر الوعي منها . لكننا هناك انفعالات خاطئة ليست
إلا مجرد أنسواع للسلوك ، اذا قدمت لي هدية
لا تهمني إلا قليلاً من الممكن ان أبدي للعيان سروراً عظيماً
كأن اصفق بيدي وأقفز وأرقص . لكن هذا ان هو الا
مسرحية هزلية . أثار منها قليلاً ومن الخطأ الا اعتبر نفسي
مسروراً . غير ان سروري ليس صحيحاً ، فسأتحلى عن هذا
السرور ، سألقي به في حال ذهاب زائري . هذا هو ما يجدر
بنا أن نسميه السرور « المستعار » ، متذكرين بأن هذه
« الاستعارة » ليست صفة منطقية بل صفة وجودية . على
نفس الطريقة يمكن ان يحصل لي مخاوف مستعارة واحزان
مستعارة . وتختلف هذه الحالات المستعارة رغم كل شيء
عن حالات الممثل . فالممثل يصور السرور بحركاته ، وكذلك
الحزن ، غير انه ليس مسروراً ولا حزيناً لأن انواع السلوك
هذه تتجه نحو عالم وهمي . فهو يصور السلوك ، لكنه
لا يلتزم أي سلوك .

وفي مختلف حالات الانفعال المستعار التي ذكرتها « لا شيء
يسانده انواع السلوك » فهي موجودة وحدها كما أنها ارادية ،
لكن الموقف صحيح ، نفهمه وكأنه يلح في هذه الأنواع من
السلوك . لذلك ننوي من خلال انواع السلوك تلك « ننوي
سحرياً بعض الصفات على بعض الأشياء الصحيحة . لكن هذه
الصفات مستعارة .

ولا يعني ذلك انها صفات خيالية « أو انها ~~مستعارة~~ حتماً

في وقت آخر . فإن استعارتها ان هي الا آتية من ضعف رئيسي يبدو كعنف ، فزينة الشيء الذي أعطيته موجودة كحاجة ملحة أكثر مما هي موجودة كواقع . ولهذا الزينة نوع من الواقع الطفيلي الرافد الذي أحسه احساساً تاماً ، وأعرف أنني انما اظهره في الشيء بنوع من الانبهار ، فاذا ما تركت الرقية ، ستختفي تلك الزينة .

والانفعال الحقيقي يختلف تمام الاختلاف ، لأنه مصحوب بإيمان . فالصفات المنوية على الأشياء انما تدرك على انها صحيحة . فما علينا أن نفهم بذلك ؟ أن نفهم هذا تقريباً : أن الانفعال يلتقي . وليس بإمكاننا أن نخرج منه ساعة نشاء . قد ينفد الانفعال من تلقاء نفسه غير انه ليس بإمكاننا أن نوقفه فضلاً عن أن أنواع السلوك المقتصرة على نفسها فقط ليس من شأنها إلا أن ترسم على الشيء بصورة اجمالية ، الصفة الانفعالية التي نضفي بها عليه . فالهرب الذي ما هو إلا ركض فقط لا يكفي لجعل الشيء رهيباً . أو أنه يضفي عليه صفة الرهيب في الشكل ، وليس مادة هذه الصفة . فلكي ندرك الرهيب تماماً ، لا يكفي أن نصوره فقط ، بل يجب أن ننسحر ونطفح بانفعالنا ذاته ، ويجب أن يمتلئ نطاق السلوك الشكلي ، بشيء غامض ثقيل يكون بمثابة مادة له . تتفهم هنا دور الحوادث الفيزيولوجية الصرفة : إذ انها تمثل العنصر الرصين في الانفعال ، فهي حوادث ايمان . ولا يجب أن تتفصل هذه

الحوادث عن السلوك بكل تأكيد ، بل إن هناك تشابهاً فيما بينها . فالانتقباض في الخوف أو في الحزن ، وانفراج الشرايين واضطرابات التنفس هي تماماً بمثابة رمز للسلوك الذي يهدف لإنكار العالم أو لتفريغ ما فيه من طاقة عاطفية عن طريق إنكار الذات . ثم إنه من المستحيل أن نشير بدقة إلى الحدود بين الاضطرابات الصرفة وبين أنواع السلوك وهي تدخل في النهاية مع السلوك في شكل خليص كلي ولا يمكن أن تدرس بحد ذاتها . وهذا بالضبط خطأ النظرية الطرفية التي اعتبرتها كلا على حدة .

غير أنها لا تقتصر على أنواع السلوك : فبالإمكان التوقف عن الركض ، ولكن ليس بالإمكان التوقف عن الارتجاف . وبإمكانني بمجهود عنيف أن أنهض عن الكرسي ، أن أحول تفكيري عن النكبة التي اتكبتها وأن أنصرف للعمل ، ولكن ستظل يدي مثلجتين .

علينا أن نعتبر إذاً أن الانفعال ليس مثلاً فحسب ، وليس سلوكاً صرفاً ، فهو سلوك جسد في حالة ما . والحالة وحدها لا تثير السلوك ، والسلوك بدون الحالة مهزلة . لكن الانفعال يظهر في جسد مضطرب يلتزم نوعاً معيناً من أنواع السلوك . ويمكن للاضطراب أن يبقى بعد السلوك ، لكن السلوك إنما يكون شكل الاضطراب ودلالته . ومن ناحية أخرى فإن هذا السلوك يصبح دلالة صرفة ، أو

خطأ عاطفياً بدون هذا الاضطراب فنحن تماماً تجاه شكل استخلاصي : فلكي نؤمن بأنواع السلوك السماوية من الواجب أن نضطرب .

ولكي نفهم بوضوح النهج الانفعالي انطلاقاً من الوعي ، علينا أن نتذكر ميزة الجسد المضاعفة ، إذ أنه بمثابة شيء في العالم من جهة ، وهو حياة الوعي المباشرة من جهة أخرى .

من هنا نستطيع أن ندرك الشيء الأساسي ! فالانفعال حادث إيمان . ولا يقتصر الوعي على إسقاط دلالات عاطفية على العالم المحيط به ! بل إنه يعيش العالم الجديد الذي كونه يعيشه مباشرة ، ويهتم به ، وهو يقاسي من الصفات التي رسمتها أنواع السلوك . وهذا يدل أنه حين تسد جميع المنافذ يندفع في عالم الانفعال السحري ، يندفع فيه بكليته وهو يتقهقر . وهو وعي جديد تجاه عالم جديد ، وهو يكون هذا العالم بكل ما فيه من طبيعة خاصة ، محضوره لذاته ، وبدون حدود ، وبرأيه الشخصي تجاه العالم . والوعي الذي يتأثر يشبه الوعي الذي ينام . فإن هذا ، كذاك ، يرتقي في عالم جديد ويحول جسده بصورة استخلاصية ، بحيث أنه يستطيع أن يعيش ويدرك هذا العالم الجديد من خلال نفسه . ويقول آخر ، إن الوعي يبدل جسمه أو بالآخرى إن الجسد — لكونه وجهة نظر على العالم اللاحق بالوعي — إنما يضع نفسه بمستوى أنواع السلوك . لهذا نرى أن التظاهرات الفيزيولوجية هي في عمقها اضطرابات شديدة السطحية ، فهي

شبيهة باضطرابات الحمى ، والذبحة الصدرية ■ والإثارة الاصطناعية ، الخ . فهي تمثل فقط اضطراب الجو الكلي والسطحي بحد ذاته (والسلوك وحده هو الذي يقرر ما اذا كان هذا الاضطراب « منقص الحياة » أو « ازدياد » فيها) .

والجسد بحد ذاته ليس شيئاً ، بل هو يمثل فقط ، ظلمة من وجهة نظر وعي الاشياء ، من حيث يحقق هذا الوعي ويعيش عفويًا هذه الظلمة . ومن المناسب بالطبع أن نفهم هذه الظلمة كحادث استخلاصي وبدون أجزاء . ولكن حيث أن الجسد من جهة أخرى هو شيء من ضمن الأشياء ، فإن تحليلًا علميًا من شأنه أن يميز في الجسد - البيولوجي وفي الجسد - البشري ، اضطرابات مركزة في هذا العضو أو ذاك .

وهكذا فإن أصل الانفعال الحدار عفوي يعيشه الوعي تجاه العالم . فما يعجز الوعي عن تحمله بشكل ما ، يعمد لأدراكه بصورة أخرى ، بإخلاده للنوم وباقترابه من أنواع وعي النوم والحلم والهستيريا ■ واضطراب الجسد ليس سوى الايمان الذي عاشه الوعي ■ من حيث انه قد عاشه من خارج . ولكن علينا أن نشير :

١ - الى أن الوعي الذي لا يمي ذاته يتقهقر ليفر من ضغط العالم ■ بل إن الوعي يمي تقهقر العالم وعياً وضمياً ، يصل الى المستوى السحري ، يبقى أنه ليس وعياً أصيلاً لذاته ، وعلى هذا القياس وبه فقط ، نستطيع أن نقول عن انفعال ما انه غير مخلص . فليس اذاً أية غرابة في أن غائية

الانفعال ليست موضوعاً بواسطة فعل واعٍ داخل الانفعال نفسه . إلا أن هذه الغائية ليست لا واعية ، بل إنها تنفذ في تكوين الشيء .

٢ - أن الوعي يقع فريسة لشركه ذاته . تماماً لأنه يعي شكل العالم الجديد ويؤمن به ، فهو فريسة إيمانه ، تماماً كما في الحلم والهستيريا . فوعي الانفعال حبيس ، ولكن يجب ألا نفهم أن موجوداً ما خارجاً عنه قد كبّله ، فهو حبيس ذاته ، بحيث أنه لا يسيطر على هذا الإيمان الذي لا يريد أن يعيشه لجرّد أنه يعيشه ، ولأنه يستنفذ نفسه في عيشه .

ولا يجب أن نتخيل عفوية الوعي بمعنى أنه حرّ في نفي شيء ما في نفس الوقت الذي يفترض فيه هذا الشيء ، فإن عفوية كهذه إنما تكون متناقضة ، فالوعي يتجاوز نفسه بالجوهر - فيستحيل عليه إذاً أن ينسحب إلى داخله ليشتك في أنه في خارج ، في الشيء ، والوعي لا يعرف نفسه إلا في المسالم ، والشك لا يمكن أن يكون سوى تكوين صنعة وجودية للشيء : أي عنصر الشك « أو النشاط الانفعالي في الاقتصار ، أي ما هو خاص بوعي جديد موجه نحو الوعي الوضعي ، وهكذا إذا ، بما أن الوعي يعيش العالم السحري الذي ارتقى فيه ، فإنه يسمى لدوام هذا العالم الذي يصبح حبيسه والانفعال يهدف إلى أن يدوم . وبهذا المعنى يمكن أن نعتبره مُتلقًى « فالوعي

ينفعل حول موضوع انفعاله ، وهو يزيد ثمنه ، فيقدر ما
تهرب ، بقدر ما يعترينا الخوف . والعالم السحري يرقسم ،
ويتخذ له شكلاً ، ثم يشد على الوعي ويوثقه . ولا يريد
أن يفتر منه ، ويمكن أن يسعى للهرب في الشيء السحري
ولكن الهرب منه . يعني إعطائه واقعاً سحرياً أكثر قوة .
وطبيعة « الحبس » هذه لا يمكن للوعي أن يحققها في ذاته ،
فهو يدركها في الأشياء . والأشياء هي الحابسة ، الموثقة ،
أشياء استولت على الوعي . والوعي يجب أن يأتي من نوع
من الانعكاس التطهيري أو من اختفاء كلي للموقف مسبب
الانفعال .

غير أن الانفعال « كما هو » لا يكون أخذاً إلا إذا
أدرك في الشيء المقابل الصحيح فقط لما هو أصلي (كأن
نقول على سبيل المثال أنه في هذه الساعة المميّنة وتحت هذا
الضوء وفي هذه المناسبة ، كان الرجل رهيباً .) وإن ما
هو مكوّن للانفعال ، هو أنه يدرك في الشيء شيئاً ما
يتعداه إلى ما لا نهاية له ، وفي الواقع أن هناك عالماً
للانفعال ، وجميع الانفعالات لها هذه الصفة المشتركة ، وهي
أنها تظهر عالماً واحداً ، قاسياً أو رهيباً ، أو كشيئاً أو
ساراً الخ ، ولكن في أيّ عالم تكون نسبة الأشياء إلى
الوعي سحرية صرفة على الدوام . ومن الواجب أن نتحدث
عن عالم للانفعال يكون شبيهاً بعالم الحلم أو عوالم الجنون
فالعالم يعني استخلاصات فردية ، تقيم فيما بينها صلات كما

تمتلك صفات ، غير أن الصفة لا تضي على الشيء إلا بانتقال الى اللانهاية . فهذا اللون الرمادي مثلاً يمثل وحدة لعدد لا نهاية له من التفاصيل الدقيقة Abschattungen الواقعية الممكنة ، التي بعضها رمادي مائل الى الاخضرار ، ورمادي إذا شوهه وقد تسلطت عليه الأضواء « أو أسود الخ ، كذلك الصفات التي يضيفها الانفعال على الشيء وعلى العالم الى الأبد Ad aeternum ، على أني إذا اعتبرت أحد الأشياء رهيباً بصورة فجائية ، فلا أؤكد علناً بأنه سيبقى رهيباً الى الأبد . غير أن التأكيد الوحيد لصفة الرهيب كصفة مادية للشيء هو بحد ذاته انتقال الى اللانهاية . أما الآن فإن الأمر الرهيب هو داخل الشيء ، في قلب الشيء . وهو نسيجه العاطفي ، وهو مكون له . وهكذا تبدو لنا من خلال الانفعال صفة للشيء ساحقة نهائية . وهذا ما يتجاوز انفعالنا ويثبتته . فالرهيب ليست حالة الشيء الحاضر فحسب فهو مدته بالنسبة للمستقبل ، وهو يمتد على طول المستقبل ويجعله مظلماً ، وهو يحاء على معنى العالم . « الرهيب » ، هو أن الشيء الرهيب صفة مادية ، وأن هناك شيئاً رهيباً في العالم .

وهكذا « فإن في كل انفعال جمهرة من الأحداث العاطفية تتجه نحو المستقبل لتكوّنه بطريقة انفعالية . ونحن نعيش انفعالياً صفة تتسرب إلينا ، ونتحملها ، وهي تتجاوزنا من كل صوب . وفجأة يتقلص الانفعال من ذاته ، ويتجاوز

نفسه ، وليس الانفعال فترة سخيفة من حياتنا اليومية ، بل هو حدس للمطلق .

وهذا ما يشرح الانفعالات الدقيقة . ففي مثل هذه الانفعالات ندرك عبر سلوك شبه مرسوم ، عبر اختلال ضئيل في حالتنا الجسدية - ندرك صفة موضوعية للشيء . والانفعال الدقيق لا يدرك من شيء ممقوت ، او شيء قليل الدهشة ، أو من نكبة سطحية ، بل هو شيء ممقوت ، مدهش او هو نكبة تدرك من خلال ستار . فهو حدس غامض ، يقدم نفسه كذلك . لكن الشيء هنا ، ينتظر الغد ، وقد ينزاح الستار غداً ، وسنراه تحت الضوء الساطع . وهكذا يمكننا ان نتفعل قليلاً جداً ، اذ عينا بذلك اضطرابات الجسد أو انواع السلوك ، أو ان نعتبر ان حياتنا قد تحولت الى نكبة من خلال نكسة بسيطة . فالنكبة كلية كما نعلم ، وهي عميقة ، ولكننا نصادفها اليوم فقط . وفي هذه الحال وفي حالات كثيرة اخرى مشابهة يبدو الانفعال اقوى بكثير مما هو في الواقع ، لأننا رغم كل شيء ، نشهد نكبة عميقة من خلاله . وإثبات الانفعالات الدقيقة تختلف جذرياً عن الانفعالات الضعيفة ، التي تدرك الشيء ، نتيجة لطبيعة عاطفية عابرة . والنية هي التي تميز بين الانفعال الدقيق والانفعال الضعيف ، لأن كلا من السلوك والحالة الجسدية يمكن أن تكونا متشابهين في كلتا الحالتين ، لكن هذه النية بدورها ، تتعلل بالموقف .

إن نظرية الانفعال هذه لا تشرح لنا بعض ردات الفعل المفاجئة « ردات استهجان أو إعجاب تعترينا تجاه الأشياء التي تبدو على حين غرة فإن وجهاً مكشراً إذا ما بدا لي فجأة لاصقاً بزجاج نافذتي سيجعلني أحس بأن الخوف يحتاجني. ولا يوجد هنا بلا ريب ، نوع من السلوك يجب التزامه ، ويبدو ان الانفعال لا غائية له . وبصورة عامة إن إدراك الشيء الرهيب في مواقف أو وجوه ، فيه بعض المبادرة السريعة وليس مصحوباً عادة بالهرب أو الإنغماء . حتى ولا ساع للهرب غير أننا إذا فكرنا في الأمر رأينا انفسنا تجاه حوادث خاصة لكن من شأنها أن تتخذ تفسيراً يدخل في نطاق الأفكار التي عرضناها . لقد رأينا أن الوعي يتقهقر في الانفعال ويتحول فجأة الى عالم محدد ، حيث نعيش في عالم سحري . لكن هناك عكساً صحيحاً ، إن هذا العالم نفسه الذي يكشف أحياناً عن ذاته يتخذ الوعي وكأنه سحري بدلاً من أن نتظره محدداً . وليس علينا أن نظن في الواقع ان السحري صفة مؤقتة نلقينا في العالم تبعاً لمزاجنا . فهناك هيكل وجودي للعالم يكون سحرياً . ولا نريد أن نتوسع هنا في هذا الموضوع الذي سنعالجه في مكان آخر . على أننا نستطيع أن نشير منذ الآن الى أن الفئة « السحرية » تحكم العلاقات النفسية للبشر الذين يعيشون في المجتمع وهي تحكم بشكل أدق ، إدراكنا للغير . والسحري كما يقول « ألان » Alain هو « الروح الذي ينجر بين الأشياء » . أي انه استخلاص لامنطقي من العفوية والسلبية . وهو

نشاط جامد ، وهو وعي جعل سلبياً *Conscience passivée* .
وتبعاً لهذا الشكل بالضبط يبدو لنا الغير ، وهذا ليس
بسبب وضعنا تجاهه ، وليس بواقع عواطفنا ، ولكن بضرورة
جوهرية . وفي الواقع أن الوعي لا يمكن أن يكون غرضاً
تجاوزياً إلا إذا استقبل تعديل السلبية . وهكذا فإن معنى
الوجه هو وعي في البدء (وليس اشارة للوعي) ، لكنه
وعي مضطرب ، متقهقر ، هو سلبية بالضبط .

سنعود الى هذه الملاحظات فيما بعد ونأمل أن نبين أنها تفرض
نفسها على العقل . وهكذا فإن الإنسان هو دائماً بمثابة ساحر
للإنسان ، والعالم الاجتماعي هو سحري قبل كل شيء . وليس
مستحيلاً أن نأخذ من عالم العلاقات النفسية نظرة حتمية أو
أن نبني في هذا العالم السحري هياكل عليا عقلية .
ولكن ، إن هذه الهياكل هي الوقتية وعدمية الاتزان هذه
المرّة ، وهي نفسها التي ستهدم حين تكون الهيئة السحرية
للوجوه . والحركات والمواقف الانسانية ، حين تكون
تلك الهيئة قوية . وماذا يحدث حين تهدم الهياكل العليا
التي بناها العقل وحين يجد الإنسان نفسه قد غطس من
جديد في السحر الأصلي ؟ هذا أمر يسهل التنبؤ به : إذ ان
الوعي يدرك السحري كسحري ، ويعيشه بقوة كما هو عليه .
ففتنة الضال ، والمقلق ، الخ . تسدل على السحري من
حيث ان الوعي يعيشه ، من حيث انه يطلب من الوعي
أن يعيشه . والانتقال المفاجيء من ادراك عقلائي للعالم الى ادراك

لنفس العالم على أنه سحري ، اذا كان معللاً بالفرض نفسه واذا كان مصحوباً بعنصر كريبه : ذلك هو الشيء الرهيب عينه . واذا صحب هذا الانتقال عنصر مقبول ، فذلك هو الإعجاب . (لقد اوردنا هذين المثلين ، وهناك بالطبع أمثلة أخرى كثيرة .) وهكذا فان هناك شكلين للانفعال ، تبعاً لما اذا كنا نحن الذين نكون سحر العالم لنسد مكان النشاط الحتمي الذي لا يمكن ان يتحقق ، أو أن العالم ذاته هو الذي يكشف نفسه فجأة كشيء سحري حولنا . ففي الشيء الرهيب مثلاً ندرك فجأة انقلاب الحواجز الحتمية : فهذا الوجه الذي يظهر من وراء الزجاج ، لن نأخذه في البدء باعتباره جزءاً من رجل سيدفع الباب ويمشي ثلاثين خطوة ليصل إلينا . بل بالعكس يتمثل لنا سلبياً كما هو وكأنه يتصرف عن بعد ، فهو متصل مباشرة بجسدنا من وراء الزجاج ، ونحن نعيش دلالاته وتلقاها ويجسدنا نكونه ، غير أنه يفرض نفسه في الوقت ذاته ، وينكر المسافة ويدخل إلينا . والوعي المنغمس في هذا العالم السحري يجذب إليه هذا الجسد بقدر ما يكون هذا الجسد إيماناً ، وهو يؤمن به . وأنواع السلوك التي تعطي الانفعال معناها ليست بعد الآن ملكاً لنا : فتعبير الوجه ، وتحركات جسد الغير تأتي لتؤلف كلا استخلاصياً مع اضطراب جسدنا ، نصادف هنا اذاً نفس العناصر والهيكل التي نصفها الآن . إلا ان السحر الأولي ودلالة الانفعال يأتيان من العالم وليس من ذاتنا . وبالطبع فإن السحر كصفة واقعية

للعالم ليست محددة بالعنصر الانساني . بل يمتد الى الأشياء ،
من حيث انها تقدم نفسها على انها انسانية (المعنى المقلق
لبعض المناظر وبعض الأشياء » أو لغرفة تحمل آثار زائر
غريب) أو أنها تحمل الصفة النفسية . على ان تميز نموذجين
للانفعال ليس دقيقاً بصورة قاطعة : وهناك اختلاط فيما
بينها » وغالبية الانفعالات ليست صافية . وهكذا فان
الوعي إذ يحقق بغائية عفوية هيئة سحرية للعالم » يستطيع
ان يخلق المناسبة لكي يتظاهر كصفة سحرية حقيقية . وبالعكس
إذا كان العالم يتمثل وكأنه سحري بشكل او بآخر ، فمن
الممكن للوعي أن يضبط تكوين هذا السحر وينهي ، وينشره
في كل مكان أو أنه بالعكس يجمعه ويقويه على غرض واحد .
على كل حال يجب أن نشير الى أن الانفعال ليس تبديلاً
طارئاً لدى شخص من الأشخاص ، من شأنه أن يمتد في عالم
لا يتغير .

ومن السهولة أن نرى أن كل ادراك انفعالي
لشيء مخيف أو مثير أو محزن الخ . لا يمكن له أن يتم
إلا على أساس تغيير شامل للعالم . فلكي يبدو هذا الشيء
مخيفاً ، يجب أن يتحقق كوجود مباشر وسحري أمام الوعي
ويجب على هذا الشيء الذي ظهر على بعد عشرة أمتار مني
وراء نافذتي » أن أعيشه وكأنه حاضر في نفسي مباشرة في
تهديده . ولكن هذا ليس ممكناً إلا في فعل واع يهدم
جميع هياكل العالم التي . تستطيع أن تبعد العنصر السحري

وأن تجعل الحدث مقتصرأ على نسبة صحيحة . وعلى سبيل المثال يجب على النافذة التي هي « غرض يجب أن ينكسر في البدء » وعلى الأمتار العشرة التي هي مسافة يجب قطعها - يجب على كل من النافذة والمسافة أن تتعدما . وهذا لا يعني قط أن الوعي في رهبته يقرب الوجه ، بمعنى أنه يقصر مسافة هذا الوجه عن جسدي . فانقاص المسافة « هو تفكير حسب المسافة . كما وأن الشخص المرتاع يمكن أن يظن في النافذة « انه بالإمكان كسرها بسهولة ، أو بالإمكان فتحها من الخارج » . فليس ذلك سوى تفسيرات منطقية يقترحها على خوفه . وفي الواقع أن كلا من النافذة والمسافة قد أدركا « في نفس الوقت » في الفعل الذي به أدرك الوعي الوجه وراء النافذة . ولكن ، فقد انتزع منها سلاحها كأدوات ضرورية ، في فعل الإدراك ذاته . وتذكر تلك التفسيرات بشكل آخر . فالمسافة لم تعد مدركة كمسافة ، لأنها لم تعد مدركة « كالشيء الواجب قطعه أولاً ، بل هي مدركة كأساس وحدوي للشيء المفزع . والنافذة لم تعد مدركة وكأنها « الشيء الذي يجب فتحه » . بل هي مدركة وكأنها نطاق للوجه الرهيب . وبشكل عام « ان هناك مناطق تنتظم من حولي يعلن الشيء الرهيب عن نفسه انطلاقاً منها . لان الشيء الرهيب ليس ممكناً في عالم الادوات الحتمي .

والرهيب لا يمكن أن يظهر إلا في عالم تكون

موجوداته سحرية في طبيعتها ويكون اللجوء الممكن ضد الموجودات سحرياً . وهذا ما يبنيه عالم الاحلام بوضوح حيث الابواب والاقفال والجدران والاسلحة ليست وسائل ضد تهديد السارق أو الوحش الضاري لانها مدركة في فعل خوف وحدوي . وبما أن الفعل الذي يجردها من سلاحها هو نفسه الذي يخلقها « فترى القتلة يجتازون هذه الأبواب والجدران » وعبثاً نضغط على زناد مسدسنا ، لكن الرصاصة لا تنطلق . وبكلمة ان إدراك شيء واحد على أنه مخيف ، هو إدراكه في نطاق عالم يبدو وكأنه كان مخيفاً .

وهكذا يمكن للوعي « أن يكون في العالم » بطريقتين مختلفتين . ويمكن أن يبدو له العالم كتعقيد منظم للأدوات بحيث انه إذا شئنا أن نحدث وقعاً معيناً رأينا لازماً علينا أن نؤثر على عناصر الجهاز المعقد . في هذه الحال « تقودنا كل أداة الى أدوات أخرى والى مجمل الأدوات ، فليس هناك من عمل مطلق ولا من تبدل جذري بإمكاننا أن ندخله حالاً في العالم . بل يجب أن نعدّل أداة خاصة » وذلك بواسطة أداة أخرى تقود بدورها الى أدوات أخريات وهكذا دواليك حتى النهاية . لكن العالم يستطيع أن يبدو له أيضاً ككل بلا أداة « أي انه قابل للتعديل بلا واسطة وبكثافة قوية . في هذه الحالة ستؤثر جميع طبقات العالم على الوعي » كما تصبح حاضرة له « بدون مسافة » (مثل الوجه الذي يفزعنا من خلال النافذة ، يؤثر علينا بلا أدوات » فلا

حاجة للنافذة أن تفتح لكي يقفز إنسان الى « الغرفة » ،
وأن يمشي على الرف . وبالعكس ، فإن الوعي يهدف للقضاء
على هذه المخاطر أو أن يعدل هذه الأشياء التي لا مسافة لها
ولا أدوات ، بواسطة تعديلات مطلقة للعالم . إن شكل
العالم هذا متلاحم تماماً ، وهو العالم السحري . ونعني
بالانفعال سقوط الوعي المفاجيء في الشيء السحري . أو اذا
شئنا فان هناك انفعالا حين يغمى على عالم الأدوات « وحين
يستلم العالم السحري مكانه . فلا يجب علينا أن نرى في
الانفعال تشوشاً عارضاً في الجسد والعقل من شأنه أن يدب
الاضطراب من خارج في الحياة النفسية . بل هو بالعكس
عودة الوعي الى الموقف السحري « وهو واحد من المواقف
الكبيرة الرئيسية بالنسبة إليه مع ظهور العالم المقابل « أي
العالم السحري ، والانفعال ليس حادثاً « بل هو نمط لوجود
الوعي . وأحد الأشكال الذي تحتويه هو « الوجود في العالم
. Etre - le mode

إن وعياً مفكراً فيه يمكن أن يتجه دائماً نحو الانفعال.
ويبدو الانفعال آنئذ كهيكل للوعي . وليس صفة ضيقة «
صعبة التبيان كاللون الأحمر أو الانطباع الصرف الذي يحدثه
الأم . وليس الانفعال كما يجب أن يكون ، تبعاً لنظرية
جيمس . فلانفعال له معنى « وهو يدل على شيء بالنسبة
لحياتي النفسية . وتفكير الاقتصار الفينومينولوجي يمكن أن
يدرك الانفعال وكأنه يكون العالم على أنه سحري . « أراه
بغضباً « لانني غاضب »

لكن هذا التفكير نادر ويحتاج الى تعليقات خاصة . وقد درجت العادة أن نوجه على الوعي الانفعالي تفكيراً مشاركاً يدرك ، بكل تأكيد ، الوعي كوعي « ولكن من حيث هو معلل بالشيء » فأنا غاضب لأنه مدعاة للغضب « وستكون العاطفة انطلاقة من هذا التفكير .

خلاصة

إن نظرية الانفعال التي خططنا لها كانت بمثابة تجربة في سبيل انشاء علم النفس الظاهراتي : وإن ما تميزت به النظرية من أمثلة قد منعنا من توسيعها توسيعاً كافياً . وبما انه كان علينا من ناحية ثانية « أن نتقض جميع النظريات السيكلولوجية العادية في الانفعال » فقد انطلقنا تدريجياً من الاعتبارات السيكلولوجية لدى جيمس الى فكرة الدلالة . وإن علم النفس الظاهراتي إذا شاء أن يكون ذا ثقة بنفسه وأن يجعل لنفسه مكاناً ظاهراً عليه أن يبدأ قبل كل شيء بتثبيت جوهر العقل السيكلولوجي الذي يسأل عنه في تفكير يتأتى من الخيال وينعكس الى خارج ، وهذا ما سعينا إليه في « كتاب الصورة الذهنية » الذي يصدر قريباً ^(١) .

ولكن بالرغم من هذه التحفظات التفصيلية نأمل أن نكون قد توصلنا الى أن نبين أن فعلاً سيكلوجياً كالانفعال ، الذي يعتبر عادة كتشويش بلا قانون « أن فعلاً كهذا يملك دلالة خاصة ، ولا يمكن أن يفهم بذاته » بدون تفهم تلك الدلالة ، ونودّ

(١) وقد صدر الكتاب بعد نظرية الانفعال .

الآن أن نعين حدود هذا البحث النفسي .

قلنا ، في المقدمة ، ان دلالة الفعل الواعي الى هذا الذي يدل دائماً على الواقع الانساني الكامل الذي يجعل نفسه منفعلاً ومنتبهاً ومدركاً ومريداً ، الخ . وقد برهنت دراسة الانفعال عن هذا المبدأ : فالانفعال يشير الى دلالاته . ودلالاته هي تماماً في الواقع ، مجمل الواقع الانساني في العالم . والانتقال للانفعال هو تعديل كامل « للكائن في العالم » تبعاً لقوانين السحر الخاصة . وسنرى في الحال حدود وصف كهذا : إن نظرية الانفعال النفسية تفترض وصفاً مسبقاً للجانب العاطفي من حيث انه يكون الكائن في الواقع الإنساني « أي من حيث انه مكون واقعنا الإنساني ليكون واقعاً إنسانياً عاطفياً . في مثل هذه الحال ، وبدلاً من ان ننطلق من دراسة الانفعال او الميول ، دراسة تدل على واقع انساني لم يوضح بعد كنهاية كل بحث « نهاية مثالية لا غبار عليها لمن يبدأ انطلاقاً من الواقع الانساني الذي وصف وأثبت بواسطة حدس مسبق . وإن مختلف المدارس الظاهرانية إنما هي تقهقرية « كما وأن موضوع رجوعها للوراء هو بالنسبة اليها الهدف الأسمى . أما مدارس الفينومينولوجيا الصرفة فانها اطرادية . سنتساءل بلا ريب لماذا يناسبنا في مثل هذه الحالات ان نرجع الى كل من المدرستين . والفينومينولوجيا الصرفة كافية على ما يبدو . ولكن « اذا كان بإمكان الفينومينولوجيا أن تبرهن على أن الانفعال هو تحقيق جوهري للواقع الانساني من حيث هو عاطفة

Affection فانه يستحيل عليها أن تبين أن الواقع الإنساني يجب أن يتمثل بالضرورة في مثل هذه الانفعالات . وإن انفعالات من هذه وتلك إذا ما وجدت وحدها « فانها إنما تدل على كون الواقع الانساني مصطنعاً . وهذا الاصطناع هو ما يجعل اللجوء الى التجربة المنظمة امراً ضرورياً ، وهو الذي سيحول « على ما يظهر ، دون التقاء التقهقرية السيكلوجية مع التقديمية الفينومينولوجية .

النظرة إلى الكون

تناول سارتر في « نظرية الانفعال » موضوع التحليل النفسي من جهة تفسيره للانفعال ، ونحن نريد الآن - نظراً لما لنظرية التحليل النفسي من أهمية علمية لا سيما وانها قد سلكت طريقاً في البحث يختلف عن سائر المدارس - ان نتحدث عن نظرة مدرسة التحليل النفسي الى الكون ، مستعينين ، في سبيل ذلك ، بما أتى به فرويد رائد التحليل النفسي في محاضراته الجديدة في هذا الفن العلمي .

سنخطو هذه المرة خطوة جريئة فنغامر بالاجابة على سؤال كثيراً ما تردد في غير دوائر التحليل وهو : هل يؤدي بنا التحليل الى نظرة خاصة الى الكون ؟ واذا كان الأمر كذلك ما هي تلك النظرة ؟

واعني « بالنظرة الى الكون » Welschauung^(٢) ذلك الأنشاء

(١) فصل مقتبس من كتاب محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي لسجمنند فرويد .

(٢) كلمة المانية قال فرويد انها تصعب ترجمتها لأنها تتضمن بالمانية مغزى خاصاً .

الذهني الذي يستطيع أن يزودنا بكل موحد لجميع مشكلات وجودنا عن طريق مبدأ عام شامل ، فهو انشاء لا يترك مسألة إلا ويتناولها ، كما وأنه يشمل في ثناياه كل ما نهتم به . والعثور على نظرية كهذه أمر تصبو إليه الانسانية ، لأنه يشعر البشر بالطمانينة في حياته واذا يدرك ما يجب أن يسعى من اجله ، وعلى ضوء ذلك ينظم عواطفه وميوله ويوجهها الى خير مقصد .

والتحليل النفسي باعتباره علماً متخصصاً وفرعاً من علم النفس فهو علم نفس الأعماق وعلم نفس اللاوعي - لا يجدر به أن تكون له نظرة خاصة فيما عدا تلك التي يقدمها له العلم لكن النظرة التي يقدمها العلم تختلف عن تعريفنا السابق . لأن العلم يتطلع الى الكون باعتباره برنامجاً يرجىء تحقيقه للمستقبل وإن كان يأخذ بمبدأ التفسير الموحد للكون . ويتميز العلم ايضاً بخصائص سلبية فهو يقتصر على ما يمكن معرفته في وقت معين ، ويرفض بعض العناصر الغريبة عنه رفضاً باتاً . وهو يقرر أن معرفة الكون لا يمكن أن تصدر إلا عن المعالجة الفكرية للملاحظات تحقق في عناية - وهذا ما يسمى بالبحث - وليس ثمة معرفة يمكن أن نظفر بها عن طريق المكاشفة (١) او الحدس (٢) أو الألهام (٣) . ويبدو أن هذه النظرة الى الأمور كادت تحظى بقبول عام خلال القرن الماضي أو القرنين الماضيين ، يبقى على القرن الحاضر

(١) Révélation (٢) Intuition (٣) Inspiration

ان يعترض بأن مثل هذه النظرة الى الكون جوفاء لا ترضي النفس ، وانها تتغاضى عن جميع المطالب الروحية للانسان وعن حاجات النفس البشرية بأسرها .

ونحن نردُّ هذه الفكرة لأن العلم يعالج الروح والنفس كما يعالج الموضوعات الطبيعية الاخرى على حدٍّ سواء . والتحليل النفسي يتكلم في هذا الصدد باسم النظرة العلمية الى الكون ، لانه لا يهمل الجانب الذي تحتله النفس في إطار الكون . بل أن التحليل النفسي يريد بسط البحث العلمي حتى يتناول موضوع النفس . والعلم يبقى ابتر لو خلا من الدراسة النفسية على اننا إن ادرجنا في اطار العلم دراسة الوظائف العقلية والوجدانية للانسان ، لم يتغير الوضع العام للعلم في شيء ، ولم نقع على مصادر جديدة للمعرفة أو مناهج جديدة للبحث : ولو كان ثمة وجود فعلي للحدس والالهام لكان في وسعها أن يزودانا بمثل هذه المصادر والمناهج ، لكننا نستطيع أن ندرجها من غير حرج في عداد الظواهر الخداعة والتحقيق الخيالي للرغبات . وفضلاً عن هذا لا يشق علينا أن نرى أن الحاجة الى اصطناع نظرة الى الكون -حاجة تقوم على اساس وجداني محض . فالعلم يشهد أن النفس الانسانية تخلق امثال هذه المطالب ، وهو على استعداد لأن يردّها الى مصادرهما ، لكنه لا يملك أوهى دليل يحمله على الظن بصوابها . بل هو على العكس يميز في دقة . وعناية بين المعرفة وبين جميع ما ينتج عن امثال هذه المطالب الوجدانية

وما هو وهم وخداع .

ونحن لا نريد ان نزدري هذه الرغبات بل نحن على استعداد لأن نبني ما افضت به من الابداع الفني . وهذا لا يسعنا أن نعتبر أن اقحام هذه الرغبات في ميدان المعرفة العلمية أمر خاطيء غير مشروع .

إن وجهة نظر العلم تحتم علينا أن نحشد ما لدينا من قوى للنقد . وليس من الجائز ان نقول إن العلم ليس إلا " فرعاً من فروع النشاط الذهني للانسان ، وأن الدين والفلسفة فرعان آخران لهما من القيمة ما للعلم على الاقل ، وليس من شأن العلم أن يتدخل في شؤونهما . إن اتجاهاً كهذا انما هو واسع الافق شديد التسامح ، ولكنه اتجاه لا يمكن سنده والدفاع عنه .

والدين هو الخصم الخطير الذي ينازع العلم مكانته ، فالدين ينبىء عن أصل الكون وخلقـه ، ويضمن للبشر السعادة النهائية والحماية الالهية من صروف الحياة وتقلباتها ، كما انه ينظم افكارهم ويهديهم في أعمالهم بتعاليم يساندها كل ما له من قوة ونفوذ . أي انه يقوم بوظائف ثلاث . فهو أولاً يرضي حاجة الانسان الى المعرفة والاستطلاع . وهنا يقوم بمثل ما يحاول ان يقوم به العلم عن طريق مناهجه الخاصة ، لذا فهو يصطدم بالعلم ويصطرع معه في هذه الناحية . أما الوظيفة الثانية فيدين لها الدين من دون شك بأكبر قسط من سلطانه . فالعلم لا يستطيع أن يباري الدين حين يقوم الدين

فيعاهد الانسان على تبديد مخاوفه من صروف الحياة واطارها
وحين يضمن له خاتمة سعيدة ويعزيه فيما يحيق به من مصائب
ومتاعب ، صحيح أن العلم يعلم الانسان كيف يتقي بعض
الأخطار ، وكيف يظهر على كثير من آلامه ظهوراً
موفقاً : ومن الخطأ البعيد ان ننكر ان العلم عون قويّ
للناس ، غير انه يرى نفسه مضطراً في كثير من الأحوال
الى أن يتركهم لآلامهم ، ولا يسعه إلا أن ينصح لهم
بالتسليم للمحتوم الذي ليس منه بد . وتزداد الشقة بين العلم
والدين اتساعاً حين يقوم الدين بوظيفته الثالثة أي حين يفرض
على الناس تعاليمه وما إليها من قيود ومحظورات . ذلك
أن العلم يقنع بالكشف عن الوقائع وتقريرها ، ومع انه
يستخلص وصايا وقواعد للسلوك تكون شبيهة أحياناً بما
ينصح به الدين غير ان اسبابها والدوافع اليها تكون مختلفة
في هذه الحال .

فالدين يجمع بين تعليم الانسان وتعزيته وليس في مقدورنا
أن نفهم هذا الجمع الغريب بين التعليم والتعزية إلا اذا عرضنا له
بتحليل يتناوله من بدء نشأته . ولنبدأ بتعريف الانسان
بأصل الكون .

ان الكون من خلق كائن يشبه الانسان ولكنه اعظم
منه من كل الوجوه ، فهو أقوى منه جانباً ، واكثر حكمة
واشد بطشاً وعلى الجملة فالكون من خلق انسان مثالي أسمى
ومن الطريف أن نلاحظ أن خالق الكون هو إله واحد ،

يكاد يكون ذكراً على الدوام . وهذا الخالق يدعى صراحة « بالأب » . ولقد قال التحليل النفسي كلمته فيه إذ استخلص انه الأب حقاً . يكسوه ذلك الجلال الذي يبدو به في عين الطفل الصغير . أي أن الإنسان المتدين يتصور خلق الكون على غرار تصوّره لخلقه هو .

يصبح يسيراً علينا والحالة هذه أن نفهم كيف جمع الدين بين خلق الكون وبين الاوامر الاخلاقية الصارمة . ذلك أن الشخص الذي يدين له الطفل بوجوده وهو الأب (أو بعبارة أدق ، الوظيفة الوالدية التي تؤلف من الأب والأم) هو بعينه من كان يتعهد الطفل الضعيف بالحماية ، ويسهر عليه ألا يتعرض لما يزخر به العالم الخارجي من مخاطر ، ومن ثم كان الطفل يشعر في كنفه بالأمن والطمأنينة . وحتى الراشد الكبير الذي يعرف انه اشدّ بأساً من الطفل وانه أبصر بمخاطر الحياة ، لا يزال يشعر في قرارة نفسه انه من العجز وقلة الحيلة ما كان في طفولته ، وانه في صلته بالعالم الخارجي لا يزال طفلاً .

أما ثالث الأركان الرئيسية في برنامج الدين ، وهي التعاليم الأخلاقية فليس من العسير ربطها ، بموقف الطفولة . لقد قال الفيلسوف كنط في عبارة مشهورة ان أقوى دليل على عظمة الله هي السماء ذات النجوم التي تعلونا والقانون الخلقى الذي تنطوي عليه ضمائرنا ، وهذا شيء غريب : ومع هذا فإن عبارة كنط تمس حقيقة نفسية كبرى . فإن الطفل الذي

عاش جوّ الثواب والعقاب عندما يكبر ، يحمل هذه الاوضاع والشؤون جميعها في ثنايا دينه من دون أن يصيبه تغيير . وعلى مرّ الزمن اخذت الروح العلمية تعالج الدين كأنه مسألة انسانية وتخضعه للتمحيص والنقد . فلم يستطع الدين ان يقاوم هذا الاختبار من عدة وجوه . اولها ان المعجزات اثارت شعوراً بالدهش وعدم التصديق لانها تنقض كل ما تعرفنا به الملاحظات الرشيدة الرزينة . الوجه الثاني : ان وصف الدين لخلق الكون دلّ على قصور في المعرفة يحمل طابع العصور الخوالي . اما الناحية الثالثة : وهي شريعة العقاب والثواب التي يقول الدين انها تسيطر على العالم فيبدو انه لا صحة لها ، فالزلازل والسيول والامطار ليست اعمالاً عادلة اذا ما اعتبر انها صادرة عن خالق الكون . كما واننا نرى ان المحتالين والعتاة واخساء المبادئ هم من يبتزون طيبات الارض لانفسهم دون الاتقياء الصالحين .

وقد كان التحليل النفسي اخر من تصدى للنقد للنظرة الدينية الى الكون اذ رد عجز الدين الى عجز الطفولة وقلة حيلتها . كما رد مضمونه الى بقاء رغبات الطفولة وحاجاتها حتى سن النضج . وهذا لا يتضمن على التحديد دحض الدين ، لكنه تهذيب ضروري لمعلوماتنا عنه . على اننا لا تتناقض مع الدين الا حين يدعي انه ذو اصل إلهي . والحق انه لا يكون ادعاء باطلاً اذا قبل الناس تفسيرنا الالوهية .

فالدين محاولة للتحكم في العالم المادي عالم الرغبات الذي خلقناه في انفسنا نتيجة لضرورات بيولوجية ونفسية ■ غير انه لا يفلح في هذه المحاولة ، فتعاليمه مدموغة بطابع الازمنة التي نشأت فيها : وهي عهود الطفولة البشرية وجهلها . كما ان ما يعد به من تعزية ومؤاسة غير خليق بالثقة ، اذ تعلمنا الخبرة ان العالم ليس عالم حضانة للاطفال . اما الاوامر الاخلاقية التي يحاول الدين ان ينفث فيها من روحه ففي حاجة الى دعامة اخرى بدلاً منه ، لان المجتمع الانساني لا يستطيع ان يستغني عنها ، ومن الخطر ان تربط إطاعتها بالعقيدة الدينية .

ان بعض الحجج التي يدلي بها انصار الدين ليس من العسير تنفيذها ولو ان بعضها يفلح في الافلات من الدحض والتقييد . ان اول اعتراض يقرع الاذن هو ان من التوقع ان يتخذ العلم الدين موضوعاً من موضوعات بحثه . فالدين شيء سام جليل يعلو على ما لدى الانسان من قدرة على الفهم والادراك ، شيء لا ينبغي له ان تتناوله مغالطات النقد . وبعبارة اخرى فالعلم ليس اهلاً للحكم على الدين . وليس من شك في أن العلم شيء نافع وذو قيمة كبرى ما ظل منحصرأ في نطاقه الخاص به ، ولكن الدين لا يندرج في هذا النطاق فليس للعلم شأن به — اما نحن فان لم نلق الى هذا النبذ الغليظ بالآ ، وتساءلنا عن الأسس التي يقيم عليها الدين دعواه كي يحتل مكانة ممتازة من شئون الناس ، كان الجواب الذي

نتلقاه - أن كان لنا الشرف ان نتلقى جواباً على الاطلاق
أن الدين لا يمكن ان يقاس بمعايير انسانية ۞ لانه ذو اصل
الهي ، كاشفتنا به ۞ روح عليا ۞ ليس في وسع العقل البشري
ان يدركها . والحق انها حجة ليس هناك اسهل من تفنيدها
فهي مغالطة واضحة تسمى في عرف المناطقه ۞ بالمصادرة على
المطلوب ۞ ذلك ان موضع التساؤل يتلخص فيما اذا كانت
هناك روح آلهية ومكاشفة ، فهل من الرأي ان يحاسب عن
هذا بانه تساؤل لا محل له لان الالهية لا يمكن ان تكون
موضع تساؤل ؟ . وفي هذا ما يذكرنا بما يحدث احياناً
اثناء اجراءات التحليل حين ينكر اجد المرضى الاذكياء
تأويلاً من التأويلات التي ندلي بها اليه ، ويبني انكاره على
اسس سخيفة بوجه خاص ، وهذا المنطق الابرر يشهد بوجود
دافع قوي بوجه خاص يحمله على الانكار . وهو دافع لا
يمكن ان يكون الا من نوع وجداني ، يقوم على اثقال على
معين .

وقد يكون الجواب من طراز آخر يعترف فيه صراحة
بمثل هذا الدافع : والدين لا ينبغي له ان يخضع للنقد لانه
اسمى شيء تمخضت عنه نفس الانسان واكثره قيمة ونبلاً ،
ولانه يفصح عن اعماق المشاعر ، وهو بعد الشيء الوحيد
الذي يجعل الدنيا ويجعل الحياة جدرة بالانسانية . وهذا
جواب لنا في حاجة الى الرد عليه بان تناقش تقديره للدين
بل الاجدر ان نوجه اهتمامنا الى ناحية اخرى من الموضوع :

فلنذكر ان الروح العلمية لا تحاول على الاطلاق ان تبغي على حدود الدين ، بل ان الدين هو الذي يتجاوز حدوده ويقتحم نطاق تفكير العلم . ومهما يكن للدين من شأن ووزن فليس له الحق في ان يقيد الفكر ويرسم له حدوداً البتة ، ومن ثم فليس له الحق في ان يستثني نفسه من ان تطبق عليه موازين الفكر .

ان التفكير العلمي لا يختلف في جوهره عن التفكير العادي الذي نستخدمه جميعاً في شئوننا اليومية وحياتنا الجارية سواء كنا مؤمنين بالدين ام غير مؤمنين . وهو لا يتميز عن التفكير العادي الا من بضعة وجوه : فهو يهتم بدراسة موضوعات ليست ذات فائدة مادية مباشرة ، ويجهد في استبعاد العوامل الشخصية والمؤثرات الوجدانية كما انه يفحص المدركات المحسة التي يبني عليها نتائجه فحصاً دقيقاً ليستوثق من صدقها واستقامتها هذا الى انه يزود نفسه بمدركات جديدة لا يمكن الظفر بها بالوسائل العادية ويعزل العوامل التي تؤثر في هذه الخبرات الجديدة بتجارب مختلفة يغيرها عن قصد . وهدفه من هذا كله ان يظفر بمطابقة الواقع اي بمطابقة ما يوجد في العالم الخارجي مستقلاً عن ذواتنا انفسنا ، وهو كما علمتنا الخبرة ما يحسن في تحقيق رغباتنا او احباطها . هذه المطابقة للعالم الخارجي هي ما تسمى « بالحقيقة » وهي ما يهدف اليه كل جهد علمي حتى ان كان غفلاً من الفائدة العملية . فان ادعى الدين ان في وسعه ان يحتل مكانة العلم ، وانه يجب ان يكون حقاً

وصدقاً لانه ينطوي على الخير ويرفع من قدر الانسان فهذه الدعوى هي ، في الحق ، تجاوز من الدين يجب معارضته من اجل الصالح العام . ذلك ان الانسان تعلم ان ينظم شؤونه اليومية وفق قواعد زودته بها الخبرة مع مراعاة الواقع . فمن الشطط ان يطلب اليه الدين ان يآمن على اخلص شئونه بالذات سلطة تدعي انها تمتاز عن غيرها من السلطات بالتححرر من كل قواعد التفكير المعقول . اما فيما يتصل بتلك الحماية التي يعد بها الدين من آمن به ، فيشقى عليّ ان اتصور ان احداً منا يجرؤ على ولوج سيارة يزهو سائقها بأنه لا يكثرث بعلامات المرور ، بل يقودها وفق نزوات يوحى اليه بها خيال مشتط .

الحق ان الحصار الذي فرضه الدين على التفكير ، حفاظاً على نفسه ، لا يخلو على التحقيق من خطر يتهدد كلا من الفرد والمجتمع . وقد علمتنا خبرتنا بالتحليل ان ضروب التحريم الديني ، التي تكون مقصورة في الاصل على محظورات خاصة ، تنزع الى ان تمتد وتنتشر ، ومن ثمّ تصبح مصدراً لالوان من الكف الصارمة في حياة الناس . وهذا ما نلاحظه لدى النساء اللاتي حرم عليهن ان يشغلن انفسهن ، حتى في الخيال ، بالجانب الجنسي من طبيعتهن : كما ان سير البارزين من الناس في العصور الماضية تكاد ترينا جميعنا ما ينجم عن تعطيل الدين للفكر من عواقب وخيمة في حياتهم . ومن اخرى فالعقل هو احدى القوى التي يرجى منها ان توحد

بين الناس - تلك الخلائق التي لا يمكن الموازنة بين بعضها وبعض الا بشق الانفس والتي يتعذر ضبطها وحكمها من اجل ذلك . تصوروا ما يمكن عليه المجتمع الانساني لو ان كل واحد من الناس استعمل جدولاً للضرب خاصاً به ، او اتخذ لنفسه وحدات خاصة للاوزان والاطوال ! فحبذا لو تسنى للعقل - لزوح العلمية - ان يصبح حاكماً بامرهِ على النفس الانسانية بعد حين ! هذا هو خير امل تتطلع اليه في المستقبل ذلك ان طبيعة العقل ذاتها تكفل له النجاح في ان يضع عواطف الانسان وكل ما يتحتم في الموضع الذي يليق به . وسيرى الناس حين يمثلون لسلطان العقل انه اقوى رباط يربط بعضهم ببعض وانه يهد الطريق لدروب اخرى من التوفيق بينهم . وان كل ما يعوق هذا التطور ويعرقله - كالحصار الذي يضربه الدين على الفكر - خطر على مستقبل الانسانية .

وقد يكون لنا ان نقسم الآن عما يحدو بالدين الا ينهي هذه المعركة الخاسرة فيعترف في صراحة ، صحيح اني لا استطيع ان اهبكم ما يسميه الناس في العادة بالحقيقة . فالسبيل الى ذلك هو العلم . بيد ان ما استطيع ان امنحكم اياه لا يمكن ان يقاس بشيء مما يقدر العلم ان يزودكم به وذلك من حيث ما ينطوي عليه من جمال وعزاء ورفعة بشأن الانسان . ومن ثم اقول لكم انه حق ، لكنه بمعنى آخر اسى وارفع . اما الجواب عن هذا فليس بعسير .

ان الدين لا يستطيع ان يدلي بهذا الاعتراف ، ولو فعل
لفقد كل نفوذ له على جمهرة الناس . فالرجل العادي لا يعرف
الا حقيقة واحدة - هي الحقيقة بالمعنى المؤلف لهذه
الكلمة وليس في وسعه ان يتصور ما يقصد بحقيقة اسمى
او باسمى الحقائق ، فالحقيقة في نظره ، كالموت ، لا يمكن
ان تكون على درجات ، كما انه يعجز عن أن يثب الوثبة
اللازمة التي تفصل ما هو جميل عما هو حق . ولعلمكم
تتفقون معي على انه مصيب في ذلك .

فالمعركة اذن قائمة لم تنته بعد . اما انصار النظرة الدينية
الى الكون فيأخذون بالحكمة القديمة التي تقول ان الهجوم
خير وسيلة للدفاع ، ويتساءلون : « وما هذا العلم الذي
يغض من شأن الدين ! ألم يكن الدين خلاصاً وجبراً لقلوب
الملايين من الناس الافا عدة من السنين ؟ وما الذي جاء به
العلم من جانبه حتى اليوم ؟ وماذا يرجى منه ان يفعله ؟
الا يعترف العلم نفسه انه غير قادر على ان يكون عزاء
للناس وسأوى » غير قادر على ان يسمو بالانسان ويزيده
تشریفاً ؟ . فان لم نلق الى هذه الفوائد بالآ - وهذا امر
ليس بيسير - فلنا ان نتساءل على الأقل عن مذاهب العلم
وتعاليمه . ايسطيع ان يخبرنا عن خلق الكون ومصيره ،
او ان يرسم لنا صورة ملتزمة للكون او ان يرينا في اي
اطار تندرج ظواهر الحياة التي لا نجد لها تعليلاً ، أو أن
يقول لنا كيف تستطيع القوى الروحية ان تؤثر في المادة

الخامدة ؟ ولو استطاع لم ننكر عليه احترامنا اياه . لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، ولم يحل لنا مشكلة واحدة من هذا النوع . فهو يزودنا بكتف مما يزعم انه المعرفة ولا يستطيع ان يوائم بين بعضها وبعض وهو يجمع من جملة الوقائع ما يلاحظ فيها من تجانس واطراد ، ثم يفخم هذه الملاحظات فيسميها قوانين ويعرض لنا بتأويلات رعاء وما اقل حظ نتائجها من اليقين ! فكل ما يجيء به لا يعدو ان يكون حقاً موقوتاً ، وما يطريه اليوم ويقول انه من اعلى درجات الحكمة الحقيقة ان نضحى بالخير الأسمى ! .

لا اعتقد ان مثل هذه الحملة الانتقادية من شأنها ان تزلزل ايمانكم - انتم انصار النظرية العلمية الى الكون - او ان تهزها هزاً عنيفاً - وأود ان أذكركم في هذا السباق بفكاهة كانت شائعة يوماً في النمسا الامبراطورية . فقد حدث ان كان الامبراطور يستقبل وفداً من حزب سياسي لا يحبه الامبراطور ، فاذا به ينفجر فيهم صائحاً : « لم تعد هذه معارضة عادية بل هي معارضة متحالفة ! » . وان كان اللوم الذي توجه الى العلم لانه لم يحل الغاز الكون لدر . بهذه العبارة ، فهو لوم يغلو به الحق وعدم الانصاف . ان العلم لا يزال طفلاً يحبو ، ووجه حديث من اوجه النشاط الانساني ، فلم يكن لديه من الوقت ما يتيح له القيام بمثل هذا العمل الجسيم . ولندكر على سبيل المثال لا الحصر انه لم يمض على كشف « كبلر » لقوانين حركة الكواكب الا حوالي

ثلاثمائة عام « وان « نيوتن » الذي حلل الضوء الى الوان الطيف وصاغ نظرية الجاذبية ، توفي في عام ١٧٢٧ م ، اي منذ اكثر بقليل من مائتي عام ، كما ان « لافوازيه » كشف غاز الاكسجين قبل الثورة الفرنسية بزمان وجيز . ان حياة الانسان قصيرة جداً اذا هي قيست بديمومة التطور الانساني ، وقد اكون رجلاً فانياً اليوم ، ولكني كنت على قيد الحياة يوم نشر « شارلز دارون » كتابه عن اصل الأنواع عام ١٨٥٩ م . في هذا العام نفسه ولدت « بيري كوري » مكتشفة الراديوم . ولو انكم عدتم باذهانكم الى اوائل العلوم الطبيعية المضبوطة عند الاغريق ، حتى بلغت « ارشميدس » او « ارسطاركوس » الساموسي ، رائد « كوبرنيكس » (حوالي عام ٢٥٠ ق . م) او حتى شارفتم الجهود الاولى لعلم الفلك عند البابليين لما استفرقتم بهذا الا فترة وجيزة جداً من الزمن الذي يقتضيه التاريخ الطبيعي لتطور الانسان حتى يصل الى حالته الحاضرة فلا شك ان تطور الانسان من يوم ان كان على هيئة القرد قد استغرق اكثر من مائة الف عام . ولا يغرب عن البال ان القرن الاخير قد تمخض عن قدر كبير من الكشف الجديدة ، وعن تقدم علمي تواتت خطواته سراعاً « وهذا يجعلنا في حل من ان ننظر الى مستقبل العلم نظرة ملؤها الثقة .

وبعد فما الغرض من كل هذه المحاولات المشبوبة لو كس

العالم والخط من قدره ؟ اليس من البديهي اننا لا نستطيع ان نستغني عن العلم وان نستبدل به غيره بالرغم مما هو عليه من نقص في الوقت الحاضر ؛ وبالرغم من الصعوبات اللاصقة به ؟ ان العلم قابل للاتقان والتهديب الى حد لا يمكن تحديده . اما النظرة الدينية الى الكون فغير قابلة لذلك . فهذه النظرة مكتملة من حيث اصولها واساسياتها ، ولو كانت خطأ فستبقى ابداً على ما هي عليه . ان اية محاولة للفض من شأن العلم لا تستطيع ان تذكر ان العلم يعمل دائماً على ان يراعي اعتمادنا على العالم الخارجي الواقعي وارتباطنا به ، على حين ان الدين وهم يستمد قوته من مجارة رغباتنا الغريزية .

يتعين علي الان ان احدثكم عن نظرات اخرى الى الكون ... تعارض النظرة العلمية .

ويجدر بي هنا ان اذكر لكم اولاً اسماء المذاهب الفلسفية المختلفة التي اجترأت ان ترسم صورة للعالم كما يتمثله مفكرون يناون عن الواقع في العادة نأياً بعيداً .

اما النظرة الى الكون التي سأشير اليها اولاً فهي الفوضوية السياسية ونظريتها ، ان صح التعبير ، وربما انبعثت ونشأت منها . يرى هذا المذهب الفوضوي ان ليس هناك شيء اسمه الحقيقة ؛ وليست هناك معرفة يقينية بالعالم الخارجي . فما تحسب انه حقيقة علمية ليس الا نتاجاً لرغباتنا الخاصة

وحاجاتنا الخاصة كما تفصح عن نفسها في ظروف خارجية متغيرة ، فما هي اذن الا وهم وخداع . وعلى الجملة فنحن لا نجد الا ما نحن في حاجة الى ان نجده ، ولا نرى الا ما نريد ان نراه ، وليس في مقدرنا غير هذا . ومتى اختلف معيار الحقيقة ، وهو مطابقتها للعالم الخارجي ، فلا يعنينا على الاطلاق أي رأي نأخذ به . اذ كل الآراء صواب وكلها خطأ على حد سواء . وليس لاحد الحق في ان يتهم آخر بالخطأ .

وحسي ان اشير الى ان النظرية الفوضوية لا تبدو أهيئها وعظمتها التي تمس الحياة العملية . ولندكر ان الناس تسترشد في سلوكها وقصرقاتها بما لديها من آراء ومعلومات وان الروح العلمية التي تتنكر في بناء الذرة او اصل الانسان هي بعينها الروح العلمية حقاً ، وان ليست هنا معرفة تتميز بمطابقتها الواقع ، اذن لجاز لنا ان نبني الجسور من الورق المقوى كما نبنيها من الحجارة او ان نحقق مريضاً بعشر غرام من المورفين بدل ان نحقنه يجرء من مائة من الجرام ولكننا في حل من ان نستخدم الغاز المسيل للدموع بدل الاثير في التخدير . ولا شك في ان اصحاب المذهب الفوضوي انفسهم يرفضون امثال هذه التطبيقات العلمية لنظريتهم رفضاً باتاً .

اما النظرية الاخرى فهي نظرية كارل ماركس التي تركز

على صراع الطبقات . ومن الجلي ان قوة المذهب الماركسي لا تقوم على نظره الى التاريخ او على التنبؤات المستقبلية التي يبنيا على هذه النظرة ، بل على ادراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم في الانتاج الفكري والفني والخلقي للانسان . وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلمية التي كادت تكون مجهولة الى هذا العهد غير انه لا يمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هي الدوافع الوحيدة التي تحتم سلوك الناس في المجتمع . فما لا مرأ فيه ان مختلف الافراد والشعوب والسلالات لا يكون سلوكها واحداً في نفس الظروف الاقتصادية . وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على ان العامل الاقتصادي لا يمكن ان يكون العامل الحاسم الوحيد . بل من الحال ان نفهم كيف يفض النظر عن العوامل النفسية حين يدق الامر على سلوك كائنات بشرية حية ، لان هذه العوامل لا تساهم في اقامة الظروف الاقتصادية فحسب بل تحدد كذلك افعال الناس فالانسان لا يستطيع ان يعمل حتى وهو يمثل لهذه الظروف الا بدافع من نزعاته الغريزية : كغريزة المحافظة على النفس ، وحب العدوان ، والحاجة الى الحب ، هذا الى ما لديه من دافع الى التماس اللذة وتقادي الالم . واخيراً يجب الا ننسى ان جمهرة الانسانية تغشاها - وهي خاضعة للضرورات الاقتصادية - عملية تطور ثقافي يسميها البعض بالحضارة . وهي عملية تتأثر من دون شك بجميع

العوامل الاخرى ، لكنها مستقلة على التحقيق عنها من حيث نشأتها . فهي شبيهة بعملية عضوية وتقدر بذاتها على التأثير في العوامل الاخرى . فهي تبعد الغرائز عن اهدافها الاصلية ، وتحمل الناس على ان يثوروا على ما كانوا يبيعونه ويحتملونه من قبل ، ويبدو فوق هذا ان التوطد المطرد للروح العلمية احدى نتائجها الاساسية . فمن اراد ان يجعل من المذهب الماركسي علماً حقيقياً من العلوم الاجتماعية ، تعين عليه ان يحلو الدور الذي يقوم به كل واحد من هذه العوامل المختلفة تفصيلاً : اي يتعين عليه ان يدرس الاستعداد الجيلي العام للانسان وتفاوته تبعاً للسلالة ، وتحوره بفضل الثقافة ، وكيف يتأثر بالظروف الاجتماعية المتغيرة وأوجه النشاط المهني وطرق كسب الرزق ، وكيف تتضافر هذه العوامل المختلفة بعضها مع بعض او يتنافر بعضها من بعض . ذلك ان علم الاجتماع وهو العلم الذي يدرس سلوك الانسان في المجتمع لا يمكن ان يكون شيئاً آخر غير علم النفس التطبيقي . والحق انه لا يوجد في الواقع غير علمين : علم النفس البحت او التطبيقي والعلم الطبيعي .

وحينما بدأ الناس يفطنون ، آخر الأمر ، الى الخطورة البعيدة المدى للظروف الاقتصادية ، ثار في نفوسهم الميل الى تغييرها عن طريق الثورة بدل ان يدعوا ذلك للتطور الطبيعي . ان الماركسية النظرية كما هي مطبقة في البلشفية الروسية ، وقد اصبحت لها من القوة والشمول والتفرد ما جعلها بمثابة

« نظرة الى الكون » لكنها ليست في الوقت عينه لبوساً غريباً يشابه بينها وبين ما تحاربه . فمع انها تدين بأصلها وبتحقيقها الى العلم « ومع انها بنيت على العلم ووفق سنته ، الا انها ضيقت الحناق على الفكر بصورة عنيدة متصلبة تذكرنا بما كان يفعله الدين من قبل .

ومع ان الماركسية العلمية قد اطاحت بكل الاوهام والأنظمة المثالية في غير هودة اولين ، الا انها نفسها خلقت اوهاماً لا تقل عن سابقتها ريبة واستعصاء على البرهان . فهي تأمل ان تغير الطبيعة الانسانية ، في خلال بضعة اجيال بحيث يتسنى للناس ان يعيشوا معاً في نظام جديد للمجتمع يكاد يخلو من الاحتكاك ، وان يقوموا باعمالهم طوعاً دون اكراه . ولكي تكبح الغرائز - وهذا امر لا غنى عنه في كل مجتمع منظم - فهي تبدل موضوعاتها اذ توجه النزعات العدوانية الى الخارج تلك النزعات التي تتهدد كل مجتمع انساني تساندها في ذلك عداوة الفقراء وعداوة الضعفاء لمن بيدهم النفوذ والسلطان . غير ان تحوير الطبيعة البشرية على هذا النحو بعيد الاحتمال الى حد كبير .

اسمحوا لي في النهاية ان اخص لكم ما لزم ان اقله عن الصلة بين التحليل النفسي ومسألة النظرة الى الكون : الرأي عندي أن التحليل النفسي لا يستطيع ان يخلق لنفسه نظرة الى الكون خاصة به . فهو ليس في حاجة الى ذلك

لانه فرع من فروع العلم ، وبذا يستطيع ان يشترك في فلسفة الوجود العلمية . على ان هذه النظرة غير جديرة بذلك الاسم الصائت الرنان ، لانها لا تنتظم كل شيء في سلكها ، فهي غير مكتملة ولا تدعي انها عامة شاملة او انها تؤلف نظاماً *Systeme* بمعنى الكلمة . وذلك ان التفكير العلمي لا يزال في طفولته ■ ولا يزال عاجزاً عن حل عدد ضخم من المشكلات الكبرى . ان النظرة العلمية الى الكون لا تقنع بتوكيدها شهادة العالم الخارجي الواقعي ، بل ان لها فوق ذلك خصائص سلبية في جوهرها فهي تستمسك بالحقيقة وترفض الاوهام ، فاذا كان بين معاصرنا من لا يرضى بهذا الوضع واراد شيئاً اكثر منه يتخذة ذريعة موقوتة الى راحة باله ، فليبحث عنه حيث يتسنى له ان يجده . اما نحن فلا نلزمه على ذلك ، لكننا لا نستطيع ان نقدم له العون او ان نغير طريقة تفكيرنا من اجله .

هذا ما اتى به فرويد ، ونحن نرى ان رائد التحليل النفسي لم يأت بنظرة شاملة للكون ، ولكنه بانتقائه النظريات الاخرى ، يشرح لنا وجهة نظر التحليل النفسي ، العلم الذي ذاع صيته بعد ان اكتشف جانباً عظيماً من جوانب الشخصية الا وهو اللاوعي . وهو جانب رفضه سارتر او قبل به بتحفظ شديد ، وهذا ما دفعنا لان نلحق نظرية التحليل النفسي للكون ، بنظرية الانفعال الفينومينولوجي .

الفهرس

صفحة

٥	مقدمة
٢٣	تخطيط نظرية في الانتغال
٣٩	نظرية التحليل النفسي
٤٧	تخطيط نظرية فينومينولوجية ظاهراتية
٨٣	خلاصة
٨٧	النظرة الى الكون
١٠٩	الفهرس

من منشورات دار مكتبة الحياة :

تدهور الحضارة الغربية	(٣ أجزاء)	اشبنغلر
الذات		جان بول سارتر
رينيه ديكارت		الدكتور كمال الحاج
الوجودية مذهب انساني		جان بول سارتر
اسطورة سيزيف		البيير كامو
العالم في القرن العشرين		لويس شنايدر
الانسان والحضارة		يوسف الخوراني
علم النفس في حياتنا الحديثة		أرنست هيفمان
الفردية قديما وحديثا		جون ديوي
أزمة الإنسان الحديث		تشارلز فرنكل
فجر الحضارة في الشرق الأدنى		هنري فرانكفورت
مغامرات الأفكار		ألفرد نورث وايتهيد
الحرية والوجود		مطاع صفدي
ما قبل الفلسفة		فرانكفورت.. جاكوبسن
الاشتراكية بين الخيال والعلم		فريدريك أنجلز
قيمة التاريخ		جوزف هورس
الفرد والدولة		جاك ماريتمان
الأدب الثوري		نهاد رضا
هنري برغسون		الدكتور كمال الحاج

نظرية الانفعال

هَذَا الْكِتَابُ

* إِنَّ سَارْتِرْ مُفَكِّرَ جَبَّارٍ ، يُلَاحِظُ ظُلُمَاتِ النَّفْسِ ،
فَاصْبِحًا مَعْمِيَّاتِ الْغَازِهَا بِعَقْلِ ثَاقِبٍ وَحِسِّ مُرْهَفٍ . يُطَارِدُ
أَسْرَارَ الْفُؤَادِ ، وَكَثِيرًا مَا يَغْلِبُهَا بِنُورِ الْمُسْتَطِيلِ ، فَتُلْقِي
مُقَالِيدَهَا أَمَامَ قَلَمِهِ . وَهُوَ إِنْسَانٌ عَلَى حِدَةٍ ، كَالَّذِي يَشْرُدُ
عَنْ تَرَاتِبِ الْمَالُوفِ ، تَرَةً فِي كُلِّ جِيلٍ ، لِيَضَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ - مِنْ
جَدِيدٍ - عَلَى الدُّرُوبِ الصَّاعِدَةِ نَحْوَ الْبَلَاحِ الْأُسْنَى .

* إِنَّ دَارِسَ هَذَا الْمَفَكِّرِ الْجَبَّارِ ، يَرَاهُ مُخْلِصًا فِي بَحْثِهِ عَنْ
الْحَقِيقَةِ ، لِأَنَّهُ يَطْلُبُهَا بِالْحَاحِ لَا يَتَرَاخَى . يَطْلُبُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ ،
بَلْ وَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، دُونَ أَنْ يَخَافَ مِنْ انْتِهَائِهِ إِلَى لَا شَيْءٍ .

* لَا شَكَّ عِنْدِي ، فِي أَنَّ سَارْتِرْ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ أَمَامَ
الْإِنْسَانِ تَمَرَّاتٍ وَاسِعَةً فِي الْقُوَّةِ وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ . تَمَرَّاتٍ
تَحْرُرُ مِنَ الذِّلِّ وَالْمُسْكِنَةِ ، وَجُمُودِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ .

* يُرِيدُ سَارْتِرْ أَنْ يَنْفُضَ عَنْ كَوَاهِلِنَا غُيُوبًا مَا
تَوَارَثْنَاهُ مِنْ عَقَائِدٍ مُوهِنَةٍ لِلْعَزِيمَةِ . يُرِيدُ خَمِيرَةً لَا
تُخَالِفُ فِيهَا لِهَذَا سِرَّاهُ يَقُولُ بِأَنَّ الْوُجُودِيَّةَ فَلَاسَفَةٌ
تَفَاوُلُ وَعَمَلٌ ، لَا يَكُنْ مُطْلَقًا بِأَسْ ، إِلَّا عَنْ
نِيَّةٍ سَيِّئَةٍ .

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان